سر اليد المفقودة

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: سر اليد المفقودة
التأليف: أسد الله مير الحسني
موضوع الكتاب: مجموعة قصصية
عدد الصفحات: 100 صفحة
عدد الملازم: 6.25 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/2693
الترقيم الدولي: 978-977-669-881

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

سر اليد المفقودة

مجموعة قصصية

أسد اللّه مير الحسني

إهداء

إلى أبي العطوف...

قدوتي، ومثلي الأعلى في الحياة، فهو من علَّمني كيف أعيش بكرامة وشموخ.

إلى أمي الحنونة...

لا أجد كلمات يمكن أن تمنحها حقها، فهي ملحمة الحب وفرحة العمر، ومثال التفاني والعطاء.

إلى أخي وهاب الله مير... سندي وعضدي.

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي وهبنا نعمة الفكر والتعبير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، النبي الأمي، الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور.

يسرني أن أقدم لكم هذا الكتاب، الذي يجمع بين طياته عشر قصص متنوعة، تتنقل بين عوالم الخيال والواقع، هذا المزيج الفريد يهدف إلى تقديم تجربة أدبية تربوية غنية، تمتزج فيها الحكمة والتوجيه بالإبداع والخيال.

كل قصة من هذه القصص ليست مجرد سرد للأحداث، بل هي رحلة تأملية تتناول قضايا إنسانية واجتماعية هامة، تسعى لتوسيع مدارك القارئ، صغيراً كان أم كبيراً، من خلال هذه القصص، أهدف إلى تعزيز القيم الإنسانية والأخلاقية، وتقديم نماذج تحتذى بها، تساعد في بناء الشخصية وترسيخ القيم الحميدة.

إن هذا الكتاب ليس مجرد ترفيه، بل هو أداة تربوية تسعى إلى الإصلاح والتوجيه، وتقديم أفكار جديدة حول كيفية التعامل

مـع تحديـات الحيـاة اليوميـة، اخـترت بعنايـة المفـردات والتعبـيرات المسـتخدمة، لتكـون ملائمـة لجميـع الأعـمار، ولتجعـل القـراءة تجربـة ممتعـة ومفيـدة في آن واحـد.

أرجـو أن يجـد كل قـارئ في هـذه الصفحـات مـا ينـير لـه دربـه، ويثـري فكـره، ويغنـي روحـه، وآمـل أن تسـهم هـذه القصـص في بنـاء جيـل واعٍ وقـادر عـلى مواجهـة الحيـاة بأخـلاق سـامية وفكـر نـير.

أسد الله مير الحسني

اللص الورع

« آصف» اسمُ شابٍ يافع تقي، كان متينَ البُنية، بهيّ الهندام، متورّد الخدّين، عالي النَبرة، واسع الشِدق، تتوقد في عينيه عزيمةُ الشباب، وترتسم على وجهه سيمات الإقدام، لكن مع مضي الزمان صار رأسًا على عِقَب، وتغير ميزان دقّات قلبه، أخذ الخوف منه كلّ مأخذ، واستولتْ عليه حالة مريرة ملوّثة باليأس والقنوط، حتى أصبح يبيت ليله مُساور الهموم ومُسامر النجوم.

فيومًا كان يحاور نفسه في استغراب على مرأى من النجوم الساهرة، وعلى مسمع من الأناشيد البهيجة، إذ تهلّل وجهه، وحلتْ محلها ملامحُ السعادة وتباشير العزْم والأمل، وكأن سائقا يسوقه إلى حصول العلم، فذهب يطلبه، ويلقى مشايخ عصره، وعباقرة دهره، ويُلازمهم إلى أن صارت له مكانة في الأوساط العلمية، ويَد طولى في علم الحساب.

في يوم من الأيام، تحدث فضيلة الأستاذ إلى تلاميذه بحنكة وحكمة، حيث قال:

«لا تكونوا عالةً على الناس، فالعالم الذي يستمر في الاعتماد على دعم الآخرين ليس فيه خير، فليذهب كل واحد منكم وليشتغل بما كان يشتغل به أبوه، وليتق الله فيها».

انطلق الشاب إلى مسقط رأسه، حيث كان والده قد فارق الحياة مسبقًا، واستقبلته أمه بقلب يمزج بين الحنين والحزن، بعد أن استقرّت آماله عند أمه، سألها ببساطة وودّ:

«ما هي الحرفة التي كان والدي يعمل بها؟»

توارت على وجه الأم لحظات من الصمت المؤلم، حيث ترنحت عباراتها في دواخلها، ثم بتردد واضح أجابته وهي تكاد تتذرّع بدعوى الألم:

«إن والدك قد غادرنا، فلندعه وشأنه»

لكن الشاب لم يتراجع، بل أصرّ بحزم على معرفة الحقيقة، فأجبرها على الإفصاح، رغم معاناتها وكرهها للإفصاح عن ذلك السر الأليم:

«إن أباك كان لصاً»

فأجاب بثقة متجددة:

«أمر الأستاذ أن يلتزم كل واحد منا بمهنة والده، وأن يتق الله فيها»

فردت الأم بصوت يشابه دوي الصخرة المتهالكة:

«تربتْ يداك، هل في السرقة تقوى؟»

بهذا السؤال المؤلم، أكمل الشاب طريقه بثبات، ودون النظر خلفه، رد عليها بما تحمل في طيّاتها حنان الوالدة وألم الفقد:

«على كل حالٍ أنا أمتثل أمر أستاذي، وداعا... يا سلام»

خرج في رحلة بحث عن دروب اللصوص، سعيًا لاكتساب مهارات السرقة، وبعد لقاءات وتدريبات، أصبح مستعدًا تمامًا، مشمرًا عن ساقيه، متوقعًا ليلة مليئة بالفرص، وعند حلول وقت العشاء، أدى الصلاة بكل جدّ وانتباه، ثم بقي يرصد غفوة الناس، وخرج ليعمل بحرفة والده، وفقا لتوجيهات الأستاذ.

فبدأ بدار جاره، متعمدًا الدخول، ولكن في لحظة من الوعي الأخلاقي، تذكر وصايا الأستاذ بالتقوى، وأدرك أن إيذاء الجيران يتعارض مع هذه القيمة النبيلة.

فتخطى دار جاره وتسور جدار ما يليه، وأقنع نفسه بحذر:

«هذه دار الأيتام، والله تعالى حذّر من أكل أموال اليتامى»

توجه بخطواتٍ حذرة نحو منزل تاجر غني، حيث لا حارس يحرس البوابة ولا شرطة تلوح في الأفق، انطلق بين أروقة المنزل الواسعة، التي امتلأت بالغرف المتعددة والقاعة الطويلة ذات السقف العالي، التي تتحدث عن تاريخ وثراء طويل، كانت الأجواء مظلمة، والضوء القليل الذي لم يكن كافياً لتنير الزوايا الباهتة، مما جعل الجو داخل المنزل يبدو مهيبًا وساحرًا في الوقت ذاته.

لكن مع كل خطوةٍ يخطوها، كان يشعر بوجود النمل والصراصير والعناكب، المتجولة بحريةٍ داخل هذا القصر العظيم، بالإضافة إلى رائحة الغبار التي كانت تتسلل من خلال النوافذ المغلقة، ملوثةً الهواء بمرارتها وثقلها.

بعد أن اجتاز دهاليز المنزل المظلمة، وقاعاتها الكبيرة التي تشع بالهيبة والرائحة العتيقة، وصل إلى غرفة قديمة في إحدى نواحي المنزل، كانت هذه الغرفة شبه مهجورة، يغطيها الغبار، وتتدلى من سقفها عناكب نسجت خيوطها على مر الزمان.

في زاوية تلك الغرفة، لمح صندوقاً خشبياً قديماً، كأنه لم يُفتح منذ سنوات عديدة، اقترب منه بخطوات مترددة، وأخذ

يزيل الغبار عنه بيده، فتح الصندوق بحذر، وإذا به يلمع بريق الذهب والفضة والمال أمام عينيه.

كانت الثروة مذهلة، ولكن الشاب تذكر توجيهات الأستاذ عن أهمية التقوى وأداء الحقوق، جلس على الأرض، وأشعل فانوساً صغيراً كان قد جلبه معه، وأخذ يراجع الدفاتر المحاسبية التي وجدها بجانب الصندوق، كان ماهراً في الحساب، فبدأ بإحصاء الأموال وعد الزكاة المستحقة.

استغرق في العمل حتى مضت لحظات الليل، وغمرت ظلمة الفجر العاشقة الغرفة، قرع أسماعه صوت المؤذن يعلن حلول وقت الفجر، وقف الشاب وقال لنفسه:

«تقوى الله تقضي بالصلاة أولاً»

توضأ وصلى الفجر، مشعرًا براحة الضمير وسكينة النفس، ثم عاد إلى عمله ليكمل ما بدأ به، مقتنعاً بأن التقوى هي السبيل لكل خطوة يخطوها في حياته.

توضأ من البِركة الصغيرة الموجودة في الفناء وأقام الصلاة في ساعة الفجر الهادئة، خلال صلاته، تردد في البيت صوت خشوعه وصلاته، مما جعل رب البيت يستيقظ من نومه.

همست زوجة التاجر بقلق:

«ما الحدث؟»

رد عليها الرجل بتعجب:

«لست أدري ما الواقع!»

قدم رب البيت بحذر نحو الشاب، وكانت خطاه مترددة لا تحمله من شدة الذهول، عندما وصل إلى مدخل الغرفة القديمة، رأى منظرًا عجيبًا، كان هناك شبح يقف على بعد شبرين منه، يرفع يديه في الصلاة بخشوع، كان فانوس صغير يضيء المكان، نظر رب البيت بدهشة إلى صندوق أمواله المفتوح بجوار الشبح، كان الصندوق يحتوي على الذهب والفضة والمال، وفوقه دفاتر الحساب مفتوحة.

سأل رب البيت في نفسه عن هذا الزائر الغامض، هل هو لصٌّ يتعبد بعد سرقته؟ أم ملاكٌ نزل ليذكره بواجباته؟ احتار في أمره وقرر الانتظار حتى ينتهي من صلاته، عندما انتهى الشاب من الصلاة سلم عليه ثم قال:

«من أنت؟

وما هذا الذي تفعله؟»

رفع الشاب رأسه وقال بكل هدوء:

«الصلاة أولاً، ثم الكلام يا غبي، أسرع وتوضأ، وأنت تصلي بنا صلاة الفجر، لأن صاحب الدار أحق بأن يؤم.»

امتثل التاجر لأمره، فتوضأ وصلى به الفجر، بعد أن انتهت الصلاة، رماه بنظرة نافذة لاحت كإشعاع بلوري من وراء نظارته السميكة، ثم قال:

«أخبرني من أنت؟ وما شأنك هنا؟»

جلس الشاب قرفصاء، دافنًا وجهه بين ركبتيه، ثم قال بهدوء:

«أنا لص.»

سأل التاجر مذهولًا:

«وما تصنع بدفاتري؟»

رد:

«أعد الزكاة التي لم تخرجها منذ ست سنوات، وقد حسبتها لتضعها في مصارفها الشرعية.»

كاد التاجر أن يجن من العجب، فقال بغضب:

«ويلك! من أخبرك بهذا؟ هل أنت مجنون؟»

أجاب الشاب بهدوء وثقة:

«لا، لست مجنونًا، تعلمت من أستاذي أن التقوى هي أساس كل عمل، وجئت لأذكرك بواجباتك التي نسيتها، فلا خير في مال لا تُؤدى زكاته، ولا بركة في حياة تُنسى فيها الصلاة.»

فلما سمع التاجر كلمات الشاب ورأى كيف ضبط حساباته بدقة وإخلاص، شعر بإعجاب كبير نحوه، ذهب إلى زوجته وأخبرها بما جرى، وتشاور معها بشأن أمر مهم، ثم عاد إليه وعيناه تلمعان بأمل جديد، قال له التاجر:

«ما رأيك لو زوجتك ابنتي وجعلتك كاتبًا وحاسبًا عندي؟ ولك السكنى أنت وأمك تسكنان لدينا.»

بلغ نشاط الشاب أقصى مداه، وارتسمت على وجهه غبطة مستقرة، قال بسعادة غامرة:

«أقبل مولاي.»

وعندما أصبح، دعا التاجر الشهود وعقد العقد، وتحول ذلك اللص التقي إلى رجل مرموق، يعيش حياة مليئة بالسعادة والرضا، كان دائم البسمة، هشوشا بشوشا، ونعم بحياة أسرية هانئة، محاطًا بأحبائه، ومستمرًا في أداء واجباته بصدق وإخلاص.

وعـاش حيـاة جديـدة، مليئـة بالنجـاح والـسرور، بعـد أن بـدأ طريقـه بتقـوى وإخـلاص، محققًـا حلمـه بالعيـش بكرامـة وشرف.

سر اليد المفقودة

هبطت الطائرة على أرض مفتوحة، نزل منها رجل ذو وجه نحيل، شديد الشحوب، ويده اليسرى مقطوعة، بمجرد أن لامست قدماه الأرض، أحاط به الناس وحدقوا فيه بتوجس، أطرق رأسه كمن يحمل على كتفيه ثقل الزمن، وغطى صدغيه بمنديل صغير كأنما يحاول أن يخفي آثار الماضي الجاثم على قلبه، أغمض عينيه للحظة قصيرة، اقترب منه الناس أكثر فأكثر، فقال بلهجة خافتة:

«اسمي ماجد، أنا من مواليد قسطنطينية، تلك المدينة التي كانت تجمع بين عبق التاريخ وروعة الحاضر، كان أبي تاجراً كبيراً يشتغل بتجارة الأقمشة، وقد عرفته الأسواق بحنكته وذكائه، كان يسافر إلى أكناف العالم، يعرف الناس ويعرفونه، يجيد عدة لغات عالمية كالعربية والإنجليزية والفرنسية والصينية، وكنت أراه يتنقل بين هذه اللغات بسلاسة وإتقان.

بـدأتُ مسـيرتي العلميـة في إلـف صبـاي حيـال عينيـه، تلمـذت عليــه في رحــاب بيتنــا، ذاك البيــت الــذي كان مليئــاً بالكتــب والخرائــط والقصــص مــن كل أصقــاع الأرض، كنــت شــغوفاً بالكتـب الفنيـة، ودومـاً كنـت أجلـس في زاويـة الغرفـة، مسـتغرقاً في قـراءة كتـب المنطـق والفيزيـاء والفلكيـات، كنـت أبحـر في عوالمهـا، أسـبر أغوارهـا، وأحلّـق في فضاءاتهـا اللامتناهيـة، وكان أبي يراقبنـي بفخــر وحــب، يشــجعني عــلى الغــوص أكثــر وأكثــر في بحــور المعرفـة، كانـت تلـك السـنوات هـي الأجمـل في حيـاتي، حيـث كان العلــم هــو مــلاذي، والكتــب هــي نافــذتي إلى عــوالم لم أرهــا بعــد.

أثنـاء تلـك الفـترة شـعر والـدي بـأني أريـد الاضطـلاع في العلوم والفنـون، كنـت أشـتاق إلى تنميـة مسـتدامة تصقـل مواهبـي وتنمـي قــدراتي، فاستشــارني في الدراســة تحــت رعايــة مــشرف دينــي، فأجبـت قصـده، أخـذني إلى مدرسـة لا أقـرب مـن القريـة ولا أبعـد منهـا، انغمسـت في الدراسـة، وأكببـت عـلى المطالعـة إكبابًـا لا يعرف الكلـل، في زمـن قصـير تمكنـت مـن نيـل قسـط وافـر مـن العلـوم، حتـى أن أصدقائـي بـدأوا يلقبوننـي بالمنطقـي، لمـا كنـت أخـوض في غـمار الفلسـفة والمنطـق بعمـق وتفـانٍ.

لكــن الحيــاة لا تســير دائــماً كــما نشــتهي، فجــأة تغــيرت نيــات والــدي، وانعكســت الأهــداف، لم يكــن هــذا بــإرادتي، بــل بإرادتــه

هـو، أراد أن أستخلفه في التجارة، وبعد إلحاحي الشديد وإلحاح أمي، تراجع عن قراره وترك لي الحرية لمتابعة مسيرتي العلمية.

حين أدرك والدي ولعي العميق بالفنون والحكمة، لقي أصدقائه بصفة استشارية، بعد نقاشات مطولة، أشاروا عليه بأن يوجهني نحو الطب، معتبرين إياه خدمة نبيلة ومستقبلية يمكنني تقديمها للمجتمع، وهكذا اصطفى لي طريق الطبابة، ليكون ميدانًا جديدًا أخوض فيه، حاملاً معي شغفي بالعلم وحب الحكمة، ومستعدًا لمواجهة تحديات الحياة بعزيمة وإصرار.

وفي تلكم الأيام، كان الأطباء في قسطنطينية أقل عدداً، لكنهم أكثر احتراماً وأكمل نفعاً، كانت مهاراتهم ومعارفهم تضيء دروب الشفاء، وكان حضورهم في المجتمع يمنح الطمأنينة والأمل، لم يكن الطبيب مجرد معالج للأجساد، بل كان حكيماً ومرشدًا، يلجأ إليه الناس في أوقات الشدة والمرض، فكانت مكانتهم سامية ودورهم لا يُقدَّر بثمن.

كانت لأبي روابط أخوية وثيقة مع العديد من سكان بلاد فرنسا، وفي أحد الأيام حلّ علينا ضيف فرنسي، وصف لنا طبابة فرنسا بتفاصيلها الدقيقة وجوانبها العميقة، وأثنى عليها بمدح رائع، متحدثًا عن رقي التعليم في جامعات الطب هناك، أظهر رأيه في أن يصطحبني معه إلى بلاده لدراسة الطب.

استحسن أبي رأيه، إذ رأى في ذلك فرصة ذهبية لتوسيع آفاقي وتعليمي في أحد أرقى الأنظمة التعليمية في العالم، أما أنا، فقد امتلأت سروراً وتوقاً لهذه الفرصة الفريدة، كان التعليم الحسن والسفر خارج بلادي هما من أعظم أمنياتي، وها هي الحياة تفتح لي أبوابها لتحقيق هذين الحلمين في آن واحد.

حينما أنجز الفرنسي ما كان يشتغل به في مصرنا من الأعمال، بدأ في الاستعداد للرحيل، كنت مستعدًا تمامًا، فقبل يوم من السفر دعاني أبي إلى غرفته، كانت على طاولته أقمشة مرقشة، وقرص من الذهب، وبجانبهما أنواع مختلفة من السلاح.

عانقني وقال لي بصوتٍ متأثرٍ:

«هذا ما تراه بين يديك من اللباس والسلاح والذهب، كلها لك، وهذا ما منحني جدك عندما غادرت البلاد خارج الموطن.»

تأثرت عيناي بدموعٍ حارقة، كأننا نعيش لحظة وداع لا تنتظر عودةً في قادم الأيام.

بعد وصولنا إلى فرنسا ومرور ستة أيام، وصلنا إلى بيرس، هناك اكترى لي الشيخ الفرنسي غرفة، ثم نصحني بحنكة قائلاً:

«لا بد أن تكون متيقظاً وتحافظ على مالك.»

كانت بيرس في ذلك الوقت مسكناً لقطاع الطريق والنهاب والسراق، لكنني قضيت فيها ثلاث سنوات متتالية، خلال تلك الفترة، تمهرت في فن الطبابة، واستفدت من كل الصعاب والتحديات التي واجهتني، حتى جمعت كل الخبرات والمعرفة التي نمت في وعاء مخيلتي، مستعداً لما هو قادم وما هو أهم في رحلتي الطبية.

أصبحت ماهراً وحاذقاً في فن الجراحة، وخلدت في حاشية ذهني الكثير من الدساتير العلمية، ولم تكن لي في هذه المدة المديدة علاقة إلا ببعض من أحِبُّهم ويحبونني.

لكن بدأت أشتاق إلى الأهل، وأصبحت أتذكرهم بشوق، كنت غير ملم بظروف والدي الكريم وحياته النموذجية، ولم أكن أعرف الأوضاع في بيتنا، لذا قررت الذهاب إلى البيت، ولو لمدة قصيرة، لأسمع أخبارهم وأطمئن على أحوالهم.

يومًا ما علمت أن قافلة تتجه إلى القسطنطينية، وأن جموعًا من الناس يستعدون للرحيل نحوها، فقابلت بعضًا منهم، وعرضت عليهم مساعدتي وما كنت أستطيع تقديمه لهم، حتى أعلنت لهم بكل وضوح:

«سوف أعالج مرضاكم دون مقابل.»

قبلوا عرضي بكل سرور، وأخذوني معهم في رحلتهم نحو القسطنطينية، ووصلت بسلام.

لكن مما أثار حزني أن باب البيت كان مغلقا وعلى رأس مزلاجه قفل كبير الحجم يبدو كيلو واحد، وتعجب الجيران حين رؤيتي سالما غانما، وأخبروني:

«أما والدك فقد وافته المنية عقب وعكة صحية، والمفتاح لدى المعلم الذي قرأت عليه حين كنت ابن ثمان سنوات»

كانت المفاجأة تكمن في عدم وجود مفتاح الباب بين يدي.

ومع وصول المعلم، تكشفت أسرار الغياب والحضور، فوجدت نفسي أمام شخصية واضحة الهوية، ولكنها ساذجة في التعامل مع واقعيتي، فأعطاني المفتاح كمنحة غالية، وفتحت الباب بتوتر يتخلله القلق والترقب، ووضعت قدماي على الدهليز باحثا عن الأب في آفاق البيت وأنا أرتعد أيما ارتعاد، كانت الأشياء منتشرة كأقذرة في الفناء، ولكن السكون كان حاضرًا، يعلمني أن الحياة ما زالت تتدفق داخل هذا المكان، ولم أجد تلك الجنيهات التي كنا نحتفظ بها للحالات الطارئة، وفي هذا التصرف المفاجئ لم أجد مفهومًا، قال المعلم بابتسامة ساذجة:

«أوصى والدك بإنفاقها على المعبد عند وفاته.»

رغم أنني لم أفهم هذه الطريفة، ولكن استسلمت وأغمضت عيني، وشكرت الله على سلامة المنزل وما يحويه من حاجيات وأثاث.

أصدقائي، كانت تلك اللحظة هي بداية شقائي في هذه الحياة، ولم تكن هذه الأولى ولا الأخيرة من موجات البلاء التي اجتاحتني، رزية تلو رزية، ألمٌ يتلاحق دون توقف، أصبحت أعاني وأعاني وأعاني... وكأن الحياة قد فقدت طعمها، ولم تعد الحكمة والطبابة تثمران كما كنت أرجو.

والدي كان يعتبر من الأثرياء، يا ليته كان حيًا، لما اضطررت لمواجهة هذه الهمجية المتتالية، بدأت الأرض تضيق عليّ بما لم أكن أتخيله، وأصبحت الخيارات محدودة، حتى وصلت في يومٍ من الأيام إلى قرار بيع كل ما أملك من مال وعقار.

لم أكن أدري أين أذهب، هل أبيع في القسطنطينية أم في فرنسا؟ كانت هذه القرارات ترنو إلى أفضل حكمة، ولكن كل خيار يبدو مؤلمًا بطريقته.

بعد تأمل طويل، قررت السفر إلى فرنسا، إذ كان الفرنسيون يعشقون منتجات القسطنطينية، وعندما وصلت، انفتحت

أمامي أبواب الفرص بشكل لم أكن أتوقعه، وحققت نجاحًا أكبر بكثير مما كنت أحلم به.

بدأت في شراء وبيع المنتجات بنجاح، مما جلب لي العديد من المرافق، ومن هنا بدأت شهرتي في مجال الطبابة تنتشر بسرعة، وأصبحت معروفًا كطبيب عالمي.

كلما زرت بلدة جديدة، كان الناس يتجمعون حولي باهتمام، فكنت نجماً متلألئًا في سماء الطب.

في أيام قلائل، ربحت مبلغاً كبيراً من المال، ثم خطرت في بالي فكرة السفر إلى بلاد أخرى، فسافرت نحو إيطاليا ونزلت في فلورنسا واستوطنتها.

كانت فلورنسا تتميز بمناظرها الخلابة ومبانيها الأنيقة، ولاحظت أناقة وجمال المحلات في هذه البلدة الساحرة، قررت فتح محل كبير، واخترت السكن في إحدى قاعات الركاب، التي كانت على مقربة من المحل.

لم يمر وقت طويل حتى أصبحت معروفاً لدى السكان المحليين كتاجر وطبيب، ورغم أنني كنت أبيع السلع بأسعار مرتفعة، إلا أن الناس كانوا يعجبون بأخلاقي ويحبونني لحسن معاملتي وتعاملي اللطيف معهم.

ولم يمض علي إلا نصف شهر، في لحظة هدوء كنت جالسًا في محلي أنقد الروبيات انتبهت إلى وجود رقعة صغيرة ملقاة في القمطر، برقت الحروف عليها بأناقة فائقة، وكأنها تستحضر لي عالمًا مجهولًا من الغموض والإثارة أخذتها وكان مكتوبا عليها:

«عليك بالحضور في منتصف الليل إلى الجانب الفلاني من البلدة»

كانت هذه الجملة البسيطة تحمل في طياتها لغزًا يعكس مشهدًا مختلفًا عن العادة.

لم يكن لدي أي فكرة عما يعنيه هذا الدعوة، ولكن الرغبة في استكشاف الغموض دفعني لأتخذ القرار بالانطلاق في هذه الرحلة غير المتوقعة.

لم أكن أعرف أحدًا في تلك البلدة، ولا كان هناك أي شخص يعرفني، ولكنها تركت في نفسي بصمة من الاستغراب.

وقبل أن يحل منتصف الليل، خرجت من منزلي وأخذت ببعض من الأسلحة المتوفرة لدي، بين أظلم ألوان الليل وروعة الطبيعة، وقفت على حافة الجسر الذي دعيت إليه، وقلبي ينبض بشدة في غمرة الترقب والتوتر، الصمت العميق يخترق الأجواء، والخوف يعتلي قلبي، وكأن الطبيعة نفسها تحتفظ بسرٍ خفي ينتظر الكشف عنه.

البرد القارس، والبدر المنير يلقي أشعته الفضية على المشهد، في حين تتلاطم أمواج البحر كالراقصات في وميض النجوم، وفي هذا الجو المليء بالغموض، بدأت أشعر بوجود شخص ما، طويل القامة، يختفي خلف جبة حمراء، فأغمضت عيني للحظة، شعورًا بالرهبة يسكنني، لكن سرعان ما عادت الشجاعة لي، وتوجهت إليه بسؤال:

«أأنت من دعاني إلى هنا؟»

«أيوا، نعم، لاحقني بسرعة»

كانت كلماته سريعة كالصاعقة، وبدأ يسرع في الخطو نحو الغابة العذراء.

كانت الأشجار تتلاطم بأوراقها في همسات مباغتة، والهواء ينعش الأرجاء بنفحاته العليلة، وقفتُ متحسِّراً وراء ذاك الرجل الذي يمضي بهدوء، فأكثرني دهشة، كنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى في ملازمته، أطلقتُ صوبه السؤال ببراءةٍ:

«ألا ترى أنّ العجلة في السير ليست مُجديّة؟

وأين نحن، فيما إذا كانت الروح تتنقل بسرعة دون وعي؟

ومن أنت أيها الغامض؟»

ردَّ علي بلسان مليء بالغضب والاستياء، كمن يُنازع:

«أنا البرقوق ، لو لا تريد لحوقي ، فدعني وشأني»

حينها زادني استغرابا، فقلتُ مُفتخراً بشجاعتي:

«أتظنني مجنوناً؟

كيف يمكن لي أن أتبعك في هذه الغابة الكئيبة، في ليلةٍ شتوية باردة، وسط ظلام كثيف؟»

فهجمت عليه لأُمسك بذيله، وحاولتُ بكلِّ قوتي الامساك به، فوقعت قدماي على جبته، فانزلق واختفى من أمامي كالظلال في الليل المظلم، لم تكن هناك بصمةٌ له، لكن بقيت جبته الحمراء في يدي، تشير إلى وجوده.

وجدت عليه جداً ومع ذلك فقد كانت لدي ثقةٌ كبيرةٌ في أنني سأعرف عنه المزيد من خلال تلك الجبة، فاتجهتُ إلى منزلي، ووضعتُ الجبة على كتفي، بينما كنت أسير، شعرتُ بلمسةٍ خفيفة على كتفي، وصوت يهمس:

«يا سيدي، لا يمكنك أن تُحقِقَ طموحاتك دون الحفاظ على شخصيتك، فهناك من يتربص بك.»

أردتُ أن أتبع هذا الصوت، لكنني فوّتُ الموعد، غاب غيبوبة العنقاء، وفي لمح كلمح البصر لم أعثر على أي آثارٍ له،

ربما كان يريد تنبيه صاحب الجبة الحمراء، لكن اشتبه عليه لما أنها كانت على منكبي.

قضيت اليوم اللاحق في خيالاتٍ تتخطى حدود الواقع، وأول ما جاء في بالي هو الإعلان عنها ليتمكن صاحبها من العثور عليها، ثم بدا لي بأن هذا لا أكثر من همجية، واستفتحت تفقد الأحوال وتفحصها، وكانت من استبرق والديباج تروق النظر وتجلب العقل.

ثم فكرت في بيعها، فعلقتها أمام المحل ورفعت السعر، كنت أريد هل أجد لها مشتر أم ماذا؟ وكنت أعرف ذلك الطويل من أقصى البعد ولو كان في جمع حشود، إلا أنه لم يكن هناك أحد يملك القدرة على شرائها.

وفي ذلك الوقت، لاحظت رجلاً ينظر إليها بعين غامضة، فسألته:

«هل تجد مثيلًا لما تراه؟»

أجاب بجدية:

«لا والله، قد لا أجد مثلها طيلة حياتي.»

بعد يوم كامل حلّ شابٌ يافع عند غروب الشمس، وعرض الدراهم أمامي، فاستغربتُ منه، كيف يمكنه شراؤها

بسعرٍ بهذا الارتفاع؟ هل ينبغي علي أن أعرضها عليه بنفسي، أم يجب أن أتجاهله؟ ورغم سروري بالربح السريع الذي جاء من دون جهدي، إلا أن الحيرة لم تفارقني.

وفي لحظة غادر الشاب، وبعد ثوان حضر مرة أخرى وقال:

«هذه الرقعة وجدتها في جيوب الجبة»

ففتحتها فوراً، ووجدت مكتوباً عليها:

«تحضر في تمام الساعة الثانية ليلاً، في الموقع المعين بجوار القصر المذكور، وتأخذ أربع مائة درهم بدل هذه الجبة»

فبهتّ، أ يمكنني أن أحصل على مائتي درهم؟ فركضتُ نحو الباب بلا توقف، ووجدتُ الشاب بعد هنيئة.

«خذ دراهمك وأعد إلي جبتي» قلت له ممسكاً بذراعه.

في بادئ الأمر ظنَّني الشاب مستهزئًا، لكن بمجرد أن علم بجدية كلامي، تحوّل سخطه إلى جلجلة، وكادت المشادة بيننا أن تتصاعد، فجأة خطفتُ الجبة وصاح المنادي، مستدعيًا كتيبة الجنود التي كانت في المنطقة، أخذوني بهم وجلبوني إلى المحكمة البلدية، حيث تقدَّموا بقضيته إلى القاضي، بعد أن استمع لحججنا، أصدر قراره لصالحه.

فعرضت عليه زيادة مائة درهم على المبلغ الذي تم الاتفاق عليه، وعندما قبل، قمت بتقديم ثلاث مائة درهم، ثم انطلقتُ في طريقي نحو المنزل، وكنتُ في ذهول من الربح الذي حققته، وقد كانت مائة درهمٍ إضافيةً.

ترقبت منتصف الليل شارد الذهن، وعندما عاد الرنين يتكرر، خرجت من المنزل ووصلت إلى المكان المحدد بجانب القصر السلطاني، التقيت بالرجل الطويل القامة الذي اقترب إليّ وسأل:

«هل جئت بالجبة؟»

أجبته مستضحكا:

«نعم، وقد خسرت مائة درهم من أجلها.»

فأجابني بابتسامة أيضًا:

«أعلم، خذ هذه أربع مائة درهم»

ألقاها أمامي، تلألأ وميض الذهب في الليل المقمر، فتهللتُ بشرا وملأت جيوبي بالنقود بسرعة.

حملقتُ نحوه لكن لم أتعرف عليه، كان يرتدي لثامًا على وجهه، وكانت عيناه تطلان نحو الخارج، شكرته قائلاً:

«هل من خدمة تجدر بي؟

إلا أن لا تكون عابثة بالنظام.»

قال مباشرة:

«لا تخف»

ثم قال:

«أريد أن أستفيد من تجربتك في الجراحة، أن تقطع رأس فتاة وتفصله عن جسدها.»

بصوت مرتبك، لم أستطع إيجاد الكلمات، فأجبته:

«مماذا ... ماذا؟»

قال بمتانة:

«وهي قد أسلمت الروح، لذا لا تهَب، أنت تفصل فقط رأسًا ميتًا عن الجسد.»

قلت بصوت مختنق:

«لا أدرك هذا الأمر إلى الآن»

قال بحزم:

«استمع أولاً إلي، ليتضح عليك ما أقصده، لا أنوي استغلالك في أمر غير لائق.»

وبعد ذلك، بدأ بتفصيل حكايته بلهجة هادئة:

«لقد وصلت إلى هذه البلاد مع أختي العزيزة، وكنا نسكن عند أقربائنا الكرام، ولكن قبل يومين، اختطفها مرض عضال لم يترك لنا أي أمل في شفائها، رغم كل المحاولات والعلاجات التي لم تجدي نفعاً.

وغداً سيقوم أقرباؤنا بدفنها وفقاً للطقوس المعتادة، وهناك تقليد قديم متجذر في أفخاذ عشيرتنا، وهو أن يُدفن كل من توفي في مقبرة العشيرة الرئيسية، ولو توفي بعيداً عن موطنه.

وقررت أن أترك جثمان أختي هنا لدى أقربائنا، لكنني أرغب في أخذ رأسها لأعود به إلى موطننا، حيث يمكن لوالدينا رؤية ابنتهما اليافعة وتوديعها بطريقة تليق بها.»

شعرت بتوتر يتزايد في صدري، وعلى الرغم من ذلك، قررت الصمت واستعدادي لمواجهة اقتراحه المروِّع مرة أخرى، ولكن كان هناك سؤالٌ يثير حيرتي:

«لو كان الأمر إلى هذا الحد من السذاجة، فلماذا اختار أن يقوم بهذا في ليلة مظلمة وبهذا الاختفاء التام؟»

لم أتمالك نفسي وسألته، وكان رد فعله أكثر قسوة، فقال:

«صباحًا يمنعني الأقرباء من قطع الرأس، ولو قطعته حاليا، ليسعني أن أرضاهم به»

فقبلتُ عذره على مضض، ثم أشار إليّ بيده لنتابع المسير معًا، سرنا في طريق مظلم تحت ضوء القمر الخافت حتى وصلنا إلى قصر شامخ، تلوح منه هيبة وعظمة الزمن الغابر، طرق الرجل الباب بحذر، وكأنّه يخشى استيقاظ من فيه، ثم دخلنا معًا في صمتٍ رهيب.

كانت الليلة حالكة السواد، لا يُرى فيها سوى ضوء الفانوس الذي نحمله، خطونا خطوات قليلة ثم توقفنا، ثم عاودنا السير على هذا النحو، خطوات تتبعها توقفات، وكأننا نتحسس الطريق وسط هذا الظلام المهيب، نزلنا الدرجات الحجريّة واحدة تلو الأخرى، والرواق الطويل يمتد أمامنا كأنه لا نهاية له.

وصلنا أخيرًا إلى غرفة صغيرة مستنيرة بفانوس معلق من السقف، في أحد زوايا الغرفة كانت ترقد جثة فتاة على فراش، تلفها سكينة الموت، بدا الرجل مضطربًا، وكأنّه يخفي دموعه التي تسيل، ثم أشار إليّ لأقترب منها، وغادر الغرفة بهدوء.

كانت جثة الفتاة مغطاة برداء أبيض إلا رأسها، وعيناها مغمضتان بسلام، ووجهها مشوب بشيء من الصفرة،

وخصلات شعرها الطويلة مبعثرة حول رأسها كأنها هالة من نور، كانت تبدو رغم وفاتها، كأنها ما زالت عائشة، لم يكن لي سوى امتحانٍ قاسٍ لمشاهدة وجه فتاة جميلة بأم عيني، مواجهة بين الحياة والموت، بين الجمال والفناء، مشهد لن تمحوه الذاكرة.

ترددت برهة، ثم سللت الخنجر من غمده واقتربت منها، في أول طعنة، انسكب الدم وقطعت رأسها، فجأة تأوهت الفتاة وفتحت عينيها للحظة، ثم أغلقتها للأبد، كان ذلك الوميض الأخير في عينيها يحمل كل آلام الحياة وأسرار الموت، لحظة من الرعب والجمال لن أنساها ما حييت.

تصلبت قدماي على الأرض، يا رب، لم تكن فاقدة الروح حين قطعت رأسها، كنت أحسبها فقيدة، لكن قضيت عليها الآن، وطعنة خنجري كانت عميقة جدًا.

ماذا فعلت؟

فقدت وعيي، وكأن وجعًا يتصاعد نحو صدري، هل خدعني صاحب الجبة الحمراء؟ أم دسّت أختها هذا المخطط؟ يمكن أن يكون الأمر على هذا المنوال، لم أستطع أن أقول لأخيها شيئًا، ولم أتمالك نفسي من شدة الخوف، فخرجت هاربًا، وأنا لا أصدق ما اقترفته يداي.

وكانت الظلمة قد شملت الرواق، وانطفأت الشمعات دون أن يطفئها أحد، لم أجد صاحب الجبة الحمراء، فوصلت إلى السلالم معتمدًا على الجدران، أتخبط خبط عشواء إلى أن هبطت، ساد أنحاء البيت الهدوء المخيف، وكان الباب الرئيسي مفتوحًا على مصراعيه.

بعدما خرجت، تنفست الصعداء، وهرولت إلى المنزل في حالة من الرعب والهلع، وقلبي يتخبط بين ضلوعي كأنه يريد الفرار من صدري، لم أستطع أن ألتفت خلفي، فقد كانت الظلال تلاحقني كأشباح الليل، وأصوات خطواتي ترتج في أذني وكأنها نذر شؤم.

وسقطت على الفراش، وغطيت رأسي لعلي أنسى ما حدث، لكن النوم جافى عيني ولم يقترب منها، مرت الساعات بطيئة، ثقيلة، حتى بدأ نور الفجر يشق طريقه من الأفق البعيد، شعرت وكأنني بدأت أستعيد وعيي بعد ليل طويل من التيه، وكنت أظن أن من دفعني إلى هذه الخطوة الجريئة سيظهر لي ويمنحني دعمه.

قررت أن أذهب إلى المحل، وأتصرف كأن لم يحدث شيئًا، ولكن الحظ السيء كان لي بالمرصاد، تذكرت أنني تركت خنجري في المنزل، أو ربما فقدته أثناء هذياني في مكان ما.

كالمعتاد، فتحت الدكان وتوكلت على الرحمن، جرت الأمور بسلامة حتى أطل جاري من الباب، وكان دائم التجاذب لأطراف الحديث والتعليقات، سألني عن الأحوال ثم قال:

«أ لك معرفة؟

ماذا حدث البارحة؟»

رددت عليه بصوت خافت ومضمحل:

«ماذا حدث؟»

قال:

«يا هذا، لم تسمع عن الحادثة؟ في الليلة السابقة قتلت بنت الحاكم الشابة، التي كانت تُعرف بـ «خير النساء»، والله كم كانت جميلة، زرتها يوم أمس في سوق البلدة مع خطيبها، كانت الفرحة تعم المكان، فاليوم كان موعد عرسهما، ولكن القدر كتب لها الرحيل المبكر، تاركة وراءها ذكريات تلألأت في ذاكرة كل من عرفها، تشير إلى محبة الناس وتقديرهم لها.

كانت كل كلمة ينطق بها تخترق قلبي كالسكين، تجعلني أتألم، تحملت هذا الألم مراراً وتكراراً، وكل مرة كانت القصة تتكرر، مثل دوامة لا تنتهي، كان الناس يتخمنون ويتوقعون

بتخميناتهم، كنت أعلم الحقيقة، ولكن لم أجرؤ على الكشف عنها، بل بقيت صامتاً، حاملاً همومي وأسراري في داخلي.

عند الظهيرة دخل رجل، كان من رجال محكمة البلدة، وقال:

«أريد أن أكلمك في أمر.»

أخذته إلى الغرفة التالية داخل الدكان، أخرج السلاح من كيسه ورمقني قائلاً:

«أهذا سلاحك أنت؟»

أردت أن أنكر، لكن جيراني كانوا يطلون من الباب، وكانوا يعرفون سلاحي، لم أجرؤ على الكذب، فقلت:

«نعم، سلاحي أنا.»

قال:

«صاحبني.»

فصاحبته، وصلنا إلى مبنى فخم، لكنها كانت زيارة لسجن الدولة، حيث أُسجنتُ في زنزانة مظلمة.

الوحدة تلبسني رغم وجود أصدقاء، فتجلت بلا سابق إنذار، بعد ساعتين فقط من الاحتجاز، استدعاني حراس مسلحون وقادوني إلى غرفة طويلة، تمتلئ بالصمت، حتى

وصلنا إلى قاعة فسيحة بعد صعود سلم طويل، وسطها طاولة تزينها ثوب أسود، وحولها جمع من الشيوخ الجادين، وخلفهم على جوانب القاعة، كان يتجمع سكان فلورنسا، كل هذا المشهد كان يتناسب مع القسوة الرهيبة التي كنت أواجهها.

عندما اقتربت من الطاولة، أن شخصا رفع رأسه، وكانت ملامح وجهه تنبعث منها حزن مُؤلم، بينما كان يحدق بي بعيون مكتومة، وكان هو الحاكم الذي ألمّ به خبر فقدان ابنته.

صرخ بصوتٍ مرهق:

«أنا أب المقتولة، ولا أملك القوة لأداء واجبي في السماع والقضاء.»

وجلس رجل آخر مكان الحاكم بين اثني عشر فردًا، الذي كانت سنواته تتناهى إلى حدود التسعين، وكانت كتفاه منحنية تحت ثقل الزمن، وجبينه مغطى بتلال من الشيب، وعيناه متوقدتان بلهيب الحياة الطويلة، وصوته كان صلبًا وجامدًا كالصخر، طلبت منه الكلمة، وعندما سمح لي، سردت التفاصيل بأمانة وجرأة بعجرها وبجرها، وأثناء إلقائي للكلمات، تعاقبت على وجه الحاكم تعابير الغضب والارتياح، وعندما انتهيت، اندلع بصوت عاصف:

«يا لكع، لماذا تحمّل ما ارتكبته طمعا على من دونك؟»

فنهره الشيخ الذي كان جالسا على مكانه:

«كيف تقول قام بهذا الأمر طمعا؟ حتى حلي المقتولة كانت على جسمها، سنصدر الحكم بعد التأكد التام من وضع ابنته.»

ثم أعلن المعلن نهاية الاجتماع، لأن المحكمة ترغب في تفحص بعض الرسائل المتعلقة بالحالة، قبل اتخاذ القرار النهائي.

انتهت الجلسة، وعادوا بي إلى نفس الحجرة التي كنت فيها، وطوال اليوم كنت أتأمل بخيالٍ واسع بعد تلقي الإنكاث حول صلة الفتاة بصاحب الجبة الحمراء. في اليوم التالي، طُلب مني الحضور مرة أخرى، ووجدت مجموعات من الرسائل مرتبة على الطاولة، وقال ذلك الشيخ من بين الحشد أن هذا الرجل لم يكن كاتب تلك الرسائل.

ألقيت نظرة على الرسائل، ووجدت نفس الخط الذي كانت به الرقعة المكتوبة عليها، ولكنهم لم يؤمنوا بكلامي، ففي نهاية كل رسالة كان هناك حرف «د»، وهو الحرف الأخير في اسمي، وكانت تحتوي على تهديد المرأة بعدم الزواج.

قلت:

«افحصوا رسائل التي في غرفتي، وقارنوها بهذه الرقعات.»

لكنهم أجابوا:

«قد بحثنا كثيرًا ولكننا لم نجد شيئًا.»

وكانت معاملتهم قاسية وغليظة تجاهي، وعندما انتهت عملية المحاكمة، عادوا وأخبروني:

«أنت المتهم في هذه الجريمة.»

عرضوا عليّ فكرة الإعدام، تبدّدت أمامي أضواء الحياة، توقّفت لألملم أفكاري، هل يستحق الموت أن يكون نهايةً لقصتي، ليختمها النسيان في أطراف الأرض؟

إذ دخل رجلٌ إلى حجرتي، وبدا وكأنه غريب، لكن روحي تترنّح في فضاء ذكرياتٍ مجهولة، كأنها تعرفه منذ الأزل، أمعن النظر فيّ قليلا ثم قال:

«ماجد، جئت أن أتلقاك»

كانت الحجرة ضيقة ومظلمة، فلم أستطع التعرف عليه على الفور، لكن شعرت هناك رابطة قديمة تجمعنا، ففتحت مخيلتي كما يفتح كتاب الذكريات، وصوته كان كالنسمة اللطيفة في زمن العاصفة، هو صوت «عائش» يعزف ألحان الماضي، الصديق

المقـرب في أرجـاء فرنسـا.

كان والـده رجـلاً شريفًـا، يعيـش الآن في هـذا المـكان، ولقـد سـمع عـن الأحـداث التـي اشـتهرت وانتـشرت، وكان يسـعى ليسـمع قصتـي بأكملهـا، ليجـد سـبيلاً لإنقـاذي.

أقسـمت بـالله أن لا ألـوث الحقيقـة قبـل المـوت، فأخبرتـه بـكل تفاصيـل القصـة بـكل صـدق.

«ألم تعرف «خير النساء» من قبل؟»

سألني عائش بنبرةٍ مليئةٍ بالتساؤل والغموض.

رددت:

«لا، لم أسمع بها من قبل.»

أجاب بحنكة:

«إن الحادثة مستفحلة»

وكان الحاكـم يتوجـه بجمـوح نحـو الثـأر، فكلـما التقـاه أحـد، كان يقـول لـه بغضـب متقـدّ:

«إنهـا كانـت معروفـة لي منـذ زمـن، ولكـن قتلهـا لم يكـن إلا لأجـل السـيطرة والسـيادة، لأنهـا لم تكـن تُفضلـه»

ولـو كان هـذا الاتهـام صحيحًـا، لـكان لذلـك الرجـل، صاحـب الجبـة الحمـراء، الـذي ألهمنـي وأغـراني بفكـرة القتـل.

بعـد لحظـات، نهـض «عائـش» وكانـت الدمـوع تجـري عـلى وجنتيـه كالأنهـار الجارفـة، ثـم عانقنـي بحنـان، ووعـدني بأنـه سـيبذل جهـوده الجبـارة مـن أجـل إنقـاذي، ورغـم أن لم يكـن هنـاك الكثـير مـن الأمـل المتبقـي، إلا أن «عائـش» كان رجـلاً عاقـلاً، ملـماً بالقوانـين، ولـذا اعتبرتـه الباقـة الأخـيرة مـن الأمـل.

بعـد مـرور يومـين مـن الارتبـاك والـصراع في هـذا الأمـر الرهيـب، جـاء ليقـدم لي فرصـة أخـيرة للنجـاة، أحاطنـي بذراعيـه وقـال بصـوت متأثـر:

«لقـد وجدنـا سـبيلاً لإنقـاذك، وربـما هذا السـبيل وعـر وصعب، حيـث يقـضى بقطـع يـدك بـدلاً مـن الإعـدام، ولم يكـن الحاكـم راضيًـا عـن اسـتماع القضيـة مـرة أخـرى، لكـن بعـد إلحاحـات متكـررة، وافـق عـلى أن نجلـب نظـيرًا للعقوبـة، وبالفعـل وجدنـا نظـيرًا، حيـث تضمنـت العقوبـة بـدلاً مـن الإعـدام قطـع يـد اليـسرى، وتصفيـة جميـع الأمـوال والممتلـكات.»

عندمـا وصـل إلى هنـا، رفـع رأسـه ونظـر إلى الحضـور، وظـل صامتًـا لبضـع دقائـق، ثـم تحـدث بصـوت متواضـع:

«أيها الأصدقاء، إن هذه هي عاقبة طموحي، وأعدت نفسي لقطع يدي أمام جمع كبير من الناس، وحانت تلك اللحظة، حيث قطفت ثمرة زلتي، وانفصلت يدي.

وحينما كنت أتعافى، أقمت لدى «عائش» كضيف، وكان يعزّيني ويساندني بين الحين والآخر، وقد استرددت جميع ممتلكاتي التي اكتسبتها بعرق الجبين.

وأصبحت رجلاً فقيراً ومفلساً، فغادرت فلورنسا إلى سيسليا، ثم رحلت إلى قسطنطينية، كانت الأمل الأخير هو المال الذي وضعته مع صديق قبل رحيلي إلى بلاد المغرب، عندما وصلت إلى قسطنطينية، شاركت قصتي مع أحدهم، وطلبت الإذن للإقامة لدى صديقي لبضعة أيام.

والآن كانت رغبتي الأساسية هي التخلص من عذاب الوحدة، لكن أين كان منزلي؟

وما هي الخطوة التالية؟

سألني بالارتباك:

«لماذا لا تذهب إلى بيتك؟»

فتحيرت وأجبت:

«وأين بيتي؟»

فأجاب:

« قام شخص بشراء منزل لك، وقال إنه سيعود قريبًا.»

ذهبت مع صديقي لمعاينة المنزل الذي اشتراه لي، وكان الجيران يعرفونني من قبل فرحبوا بي بحفاوة، قدم لي تاجر عجوز رسالة، وكانت من الشخص الذي اشترى المنزل لي.

فقرأت فيها:

«يا ماجد، لقد فقدت يدك، ولكن سأخدمك إلى الأبد هذا المنزل، وكل ما فيه من أثاث وممتلكات لك، ستتلقى كل أسبوع مبلغا يمكنك العيش عليه كما تحلو للرؤساء، فسامح من أساء إليك واترك الذي أكثر منك ملالا.»

تعرفت على صاحب الرسالة، وقال لي الشيخ، وهو يصف تلك الشخصية، يبدو أنه من سكان فرنسا، وكان يرتدي جبة حمراء.

كان البيت وسيعا نظيفا، والأثاث ثمينة وسلطانية، وإلى جانب المنزل، امتدت المحلات التجارية المزدانة بأجمل مظاهر الحياة، وكأنها تعكس جمال العالم بأسره، وكل ذلك كان جديدًا بالنسبة لي.

وقد مرت عشر سنوات منذ ذلك الحين، وأنا ما زلت أعيش حياة مليئة بالراحة والسعادة، ما زلت أشتاق إلى رحلات السفر، وأتجول في بلدان مختلفة، لكنني لم أتوجه إلى الأرض التي لقنتني درسًا لا يمحى من الذاكرة أبدًا، وكل عام يصلني مبلغ من المال من ذلك الرجل الكريم، وبسخائه وحسن معاملته، أجد قوة وسلوى في نفسي.

بعد اكتمال قصته، نظر إليه صديقه بعمق وقال بصوت ينبعث منه الحنان والتأمل:

«هل لي أن أطرح عليك سؤالاً، أيها الصديق؟ أما حان الوقت لتبتعد عن تلك الشخصية التي جرَّك إلى طريق الضياع وسلبت يدك لأجلها؟»

رد بابتسامة هادئة وعيون تنبض بالحكمة:

«لقد كانت أيامًا مشحونة بالغضب والكراهية، حيث كنت أدعو أن يحل عليه العذاب من السماء. ولكن مع مرور الأيام، تغيرت نظرتي، واتخذت قرارًا بأن أمحو تلك المشاعر السلبية من قلبي، فأنا الآن أحبه، وسأظل أحبه حتى آخر نفس في جسدي، فهذا هو الإيمان الذي يعلمني تعاليم ديني وأخلاقي.»

في ذلك الوقت لم يستطع صديقه إلا أن يعبر عن إعجابه وتقديره بكلمات مليئة بالعاطفة، ووضع يده بين يديه قائلاً:

«ما أروعك، أيها الصديق، وكم أنت كريم ونبيل في تصرفاتك...»

حفلة ميلاد الشبل

ما كانت في السماء قطعة غمام، ولا في الفضاء أثر غبار، كان الربيع ضاحكًا بالزهر، يزين الأرض بسحره الأخاذ ويضفي عليها جمالًا لا يوصف.

في ذلك اليوم البهيج، احتشدت الحيوانات في إحدى القاعات، والقاعة كانت ككوخ طويل على مقربة من حافة البحر، كانت القاعة مبهرجة بألوان زاهية، مفعمة بفراشات راقصة تملأ الهواء بخفة وجمال، ومليئة بعصافير مغردة تصدح بأعذب الألحان، وكأنها أصبحت جنة ذات خمائل، يختلط فيها عطر الزهور مع نغمات الطيور، فتُسعد القلب وتبهج الروح، على بابها الرئيسي كانت مجموعة من البالونات الملونة والشموع المضاءة، كان الخروف يتبختر متأبطًا بإكليل من الزهور، يجيء بخطوات واثقة وابتسامة عريضة تملأ وجهه، أما الأرنب، فكان حاملًا على عاتقه باقة وردة، يتغنج بخفة ورشاقة كراقص بارع، يسير بخطواته الصغيرة المفعمة بالحيوية،

في حين كان الذئب يجر حزمة زهرة، فرِحًا أيما فرح، كأنما نسي كل ما في الدنيا من شراسة وتوحش، ليصبح جزءًا من هذا العيد البهيج.

اجتمعت الحيوانات لتحتفل بميلاد الشبل، الأسد الصغير، لتملأ القاعة بأجواء من البهجة والفرح، كانت الحيوانات تأتي لتقدم له هدايا بسيطة وجميلة، وتبارك له بالخير والعفة والبركة، كل واحدة كانت تحمل هدية مكعبة معلّبة، أو ترفرف فوقه صرّة نقود، لتضعها برفق في حجره.

توالت الهدايا، وكل هدية كانت تعبر عن حب وتقدير الحيوانات لملك الغابة الصغير، كانت الوجوه تضيء بالابتسامات، حتى وصلت حفلة الميلاد إلى ذروتها بتجذيذ كعكة شوكولاتة كبيرة.

عندها شكر الملك جميع الحاضرين على حضورهم ومشاركتهم في هذا اليوم الخاص، وتركهم ليستمتعوا بطعام شهي أعد خصيصًا للمناسبة، امتلأت الموائد بأشهى الأطعمة: كوارع لذيذة، وكباب شهي، ومأكولات سريعة ، وأنواع من الهاضوم.

فلم يتمالك الشبل نفسه، وبدأ يشعر بقلة الصبر، ينظر

إلى الهدايا لِماماً بقلب فارغ، لكن إلى متى يصبر صغير مثله؟ هجم ليحصل على أبهى الهدايا، فدفع أبوه يده، ولم يسمح له بالأخذ، حتى كاد أن يزجره ويطرُده أمام الضيوف.

انغمّ الشبل، وبذل وسعه في البكاء، متقلّبًا في الرمال المفروشة، أبلى أباه عذرًا حتى رضي، وقال له واضعًا كف العاطفة على كتفه:

«لا تبخعْ نفسك على هذه الهدايا، اليوم يوم الفرح، تقدّم وخذ ما يعجبك.»

في حينه زال عنه عَناء البكاء، وتوثّب نحو المعلّبات، طمع في النظر إلى ما فيها، يأخذ شَريط هذه، ثم تلك، لكن لم يعثر على ما فيها رغم جهوده المُتعبة، اختار أكبر المعلّبات، ظنًا منه أنه يجِد فيها دراجةً أو سيارةً تليق به، ذهب بها بكل سرور، وطلب من صاحب الكاميرا أن يُقبِل إليه إقبالًا تامًا، ليلتقط له بعض الصور.

صعد فوق العلبة الكبيرة، وصاحب الكاميرا يلتقط له صورة، ثم جلس متّكئًا عليها، هكذا وهكذا... كان مسرورًا جدًّا جدًّا، فقد وجد في تلك اللحظات السعادة التي تملأ قلبه الصغير، وتجعل من يوم ميلاده ذكرى لا تُنسى.

ثم وزّع الملك الهدايا بأسْرها على من كان يخدم لديه من الفيل، والغزال والدجاجة، كل منهم أخذ هديته وفتحها بفرح، وجد الفيل سيارة جميلة في معلبته، والغزال دراجة نارية، والدجاجة جوّالًا ذكيًا، تحيّر الشبل وأخذ في فتح معلبته، وبعد إزالة الشريط والغلاف، اكتشف أنها مجرد بالونَة كبيرة.

دبّت إلى وجهه الحمرة وأخذ يبكي بشدة، أسرع نحوه الفيل، هتف بصوت جهير:

«بالونة!»

وانفجر الجميع ضاحكين، مستهزئين بالشبل، وقالوا له:

«أيها الطمّاع! من يطارد عصفورين يفقدهما معًا، والطمع يقلّل ما جُمع، لا تلُمنا ولُم نفسك.»

ندم الشبل على ما فعل، وشعر بالخجل الشديد، دخل في بطانية أبيه، باحثًا عن العزاء والطمأنينة، وقد تعلم درسًا قاسيًا عن الطمع والعجلة.

بارقة الأمل

كانت الجولة النهائية من الموسم السادس من مسابقة تحدي القراءة العربي لعام ٢٠٢٢، والتي سجلت مشاركة قياسية بأضعاف عن مشاركات المواسم السالفة، كان يغطي المكان اللون الأحمر، الأضواء خافتة، والكل يهمس بهدوء، حضر المشاركون على المسرح، وبدت على وجوههم علامات الترقب والتوتر، بعد هنيئة، تطلع الجميع إلى المسرح بانتظار الحدث الكبير، وأطلّ عليهم فضيلة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم.

ساد الصمت أرجاء صالة المسرح، وبدأت ركلات خفيفة تدبّ في القلوب، وحركات هادئة تدغدغ المشاعر، ونبضات قلبية تنزغ المشرفين من الأساتذة والآباء، كانت اللحظة مهيبة، والأنظار كلها متجهة نحو الشيخ، بانتظار الإعلان الذي سيحدد بطل تحدي القراءة العربي لهذا الموسم المميز.

كل واحد من المشاركين كان حريصاً على نيل الشرف، يسعى بكل جوارحه ليحوز على لقب بطل العروبة، كانت هناك طفلة صغيرة واقفة على الجانب الأيمن من الشيخ، وعلى ثغرها ابتسامة جميلة، كأنها بشّرت قبل البشرى.

لم تكن مكترثة بلقب البطل، بل كانت تؤمن أن كل مشارك هو فائزٌ ومستحق للفخر على صعيد العالم العربي، تلك الطفلة بجمال ابتسامتها وبساطة إيمانها كانت تمثل روح المسابقة الحقيقية، روح تجمع بين العقول المتنورة والقلوب المفعمة بالأمل، فكانت رؤيتها للعالم أكثر إشراقاً وإلهاماً.

انطوت ساعات التربص، أمسكت سكرتيرة المسرح الميكروفون في يدها، ولم تستطع أن تنطق بشيء للحظة من فرط التأثر والترقب الذي كان يملأ الأجواء، ثم بارتعاشة خفيفة في صوتها، نادت بأسماء الحاصلين على المركزين الثالث والثاني، معلنة أسماءهم وسط تصفيق حار وابتسامات مشجعة.

وأخيرًا، جمعت قواها وقالت بصوت متقطع:

«بطل مسابقة تحدي القراءة لعام ألفين واثنين وعشرين هو... بل هي شام محمد البكور»

عمّ الصمت لثوانٍ، ثم انفجرت القاعة بالتصفيق والهتافات.

شام، الطفلة التي كانت تقف بهدوء على الجانب الأيمن من الشيخ، تملكها شعور بالذهول والفرح، تقدمت نحو الميكروفون، تلك الابتسامة الجميلة لم تفارق ثغرها، تجسدت في شخصها كل الأحلام والتطلعات التي تحملها المسابقة، كانت رمزًا للتفاني، والشغف، والتفوق.

اندهش الناس عندما سمعوا اسماً لا علاقة له بالأكاديميات الكبرى، وها هي الطفلة الصغيرة تتقدم بخطى واثقة، محققةً إنجازًا لا يصدق، سبقت قصب السبق في مضمار القراءة من بين أطفال الأكاديميات الشهيرة، وطلاب الجامعات والكليات.

احتضنها الشيخ بتواضع، ولمعت الفرحة في عينيه وعلى وجوه الجمهور المتأمل.

سأل الشيخ:

«أ أنت شام محمد البكور؟»

أجابت بابتسامة تعبق بالبسمة والأمل:

«نعم فضيلة الشيخ»

استغرب الشيخ، ظنًّا منه أنها من إحدى الأكاديميات الرصينة:

«من معك؟ ومن أية أكاديمية أنت؟»

أجابت وهي تمسح دموع السعادة:

«معي والدتي وهي أكاديميتي، ولا أرى في العالم دونها أكاديمية أفضل»

«ولم يحضر والدك لينفتح في هذه الأجواء الرائعة؟»

«أبي... أبي...» تلعثمت وتتأتأت.

سأل الشيخ بلطف:

«ماذا حدث بأبيك يا ابنتي...؟»

«عساكِ بخير؟»

«بابا ارتحل قبل أن أفطم»

الإجابة خطفت الأنفاس.

«إنا لله وإنا إليه راجعون» ردد الشيخ بحزن.

وأجهشت بالبكاء امرأة كانت جالسة على المقعد المقابل للشيخ، كانت أم شام البكور، وسأل الشيخ عن أبيها، فتذكرت ذكرى الأمس الدابر، حيث اندلعت الذكريات وتوالت الصور في ذهنها، كان قلبها ينازعها إلى المقام القديم الحبيب، إلى حلب وديار غزة، وجعلت تقلب عينيها في سقف الردهة وجدرانها

الصـماء.

تقدمت سكرتيرة المسرح وعزتها منشفة الدموع.

ثـم قالـت آخـذة المجهـر، بينـما نثـرت كلماتهـا كالـورود المنثـورة عـلى سـاحة الصمـت المريـر:

«نحـن مـن حلـب، مـن مناطـق سـوريا، عشـنا بـين أحضـان مدينـة حلـب لفـترة طويلـة، ولـدت لنـا شـام البكـور في حلـب سـنة ٢٠١٥، وآنـذاك كانـت الحـرب تشـتعل بـكل شراراتهـا القاتلـة، والجحيـم كان ينـذر بالهـلاك المبـين، أصبحنـا نعيـش بـين القصـف والصواريـخ المتسـاقطة التـي تدمـر المدينـة برمتهـا.

إن بيتنـا قـد أمسـى مرتعًـا للخـوف، فنـاء الحضانـة المجـاورة لمنزلنـا الـذي يفـترض أن يكـون ملعبًـا للأطفـال تحـول إلى مقـبرة.

كيـف كان مـن الممكـن أن نبنـي مسـتقبلًا أفضـل لأطفالنـا عـلى أنقـاض هـذا المـاضي؟

كيـف لنـا أن نتحمـل المزيـد مـن الألم والحـزن بينـما نشـعر كل يـوم أننـا نخـسر حياتنـا؟

أحبائـي، يكافـح المدنيـون الأبريـاء في ظـل ظـروفٍ ومصاعـبٍ لا تطـاق إلى الآن في ديـار غـزة، لمـاذا يدفـع الأبريـاء الثمـن؟

وإلى متى هذه المأساة لتستمر؟

هل فكرتم يومًا أو لحظة؟»

***

كانت ولادة شام لحظة فارقة في حياة والدها محمد، الذي لا يمكن وصف فرحته وسعادته بقدوم ابنته الغالية، كانت شام مصدر سرور وبهجة لقلبه، وكانت أمنيته الكبرى أن يرى تلك الابتسامة البريئة تنعش عينيه، وأن يستمع إلى همس صوتها الطفولي يملأ أذنيه بالسعادة، فكانت فرحته لا توصف ولا تضاهى.

وكان يقول:

«ابنتي ستجلب السعادة في حياتي، وسيسعدُ قلبي بسعادتها، وتسرُّ عيناي برؤيتها، وتهنأ أذناي بسماع همس صوتها، فهي عالمي الجميل، أعظم فرحة في حياتي»

ولكن، جاءت سلسلة من التفجيرات لتغير مجرى الأحداث، وتحولت أحلامهم إلى كوابيس مرعبة، حيث هدمت قنابل الحرب بيتهم وأخذت أرواح أحبائهم، فاستشهد والدها محمد البكور تحت أنقاض الدمار، وبدأوا في البحث عن شام بين ركام السقف المنهار، وسط ظلام اليأس والأمل المتلاشي.

وما كنا نجد شام أيضاً، وظنناها في الموتى، بعد برهة سمعت صوتها الضعيف تناديني من بين الأنقاض، هرولت لكن لم أجد شيئاً، أزلت الأنقاض بجهد كبير، وأخيرا وجدتها مصابة ومغطاة بالدماء، ترفس بقدميها، كنت متأكدة تماما أنها لا تبقى فينا إلا دقائق للنزيف الحاد الذي كان في رأسها...

ولكن برحمة الله وعظيم شفقته، أعادها إلى الحياة بعدما أفاقت من غفوتها، لتعيش لحظات جديدة من الأمل.

***

وعندما بلغت الرابعة من عمرها، بدأت تسألني أشياء كنت لا أريد أن أبديها، ولم أتمكن من الإجابة على بعض من أسئلة شام، كانت تسأل عن شقوق رأسها، وهل خلقها الله هكذا؟ تسائلات صغيرة تعكس الكثير من الألم، وكانت تبحث عن والدها الذي غاب عنها، وتقول:

«ماما ... ماما... لماذا هذه الشقوق في رأسي؟

هل خلقني الله هكذا؟

ألا أستطيع عمل المكياج؟

متى سيرجع أبي؟

وأين ذهب؟

لماذا لا تتصلين به

كانت أسئلة شام، الصغيرة ذات الروح الحكيمة، تكاد تمزق قلبي بقسوتها وواقعيتها المؤلمة، لم أكن أريد أن أفقدها الأمل، لكنني كنت عاجزًا عن إيجاد الإجابات المطلوبة لها، كلماتها البريئة كانت تثير في نفسي عاصفة من المشاعر المتضاربة، بين الحزن واليأس والعجز عن تقديم الإجابات التي تليق بها.

هذه الأسئلة فينة لأخرى، ليلا ونهارا، جعلتني أشعر بالاكتئاب، أسئلة صعبة في لحظات مريرة، فكنت أحاول تفادي الحديث عن تلك الأمور الصعبة، وبدلاً من ذلك، كنت أحكي لها قصصًا جميلة من الكتب .

قالت بعد أن قصصت عليها يوما:

«أمي، أنّى لك هذه القصص؟»

«إنها موجودة في الكتب يا فلذة كبدي.»

فأخذت الكتاب وقدمت إليها.

«هل يمكنني قراءتها؟

قالت وهي تقلب الأوراق.

«بلى يا حبيبتي ، هذه الكتب صنفت لأمثالك»

وبعد ذلك اليوم، كانت الكتب ملاذًا لي ولشام، ففي أوراقها وصفحاتها وجدنا السلوى والراحة، وكلماتها كانت تلقي بالضوء في أيامنا المعتمة، كنت أجلس بجانبها، وهي تستمع باندهاش وتركيز إلى القصص التي أحضرتها لها، وكانت تبتسم بعمق وهي تستمتع بالعوالم الخيالية التي عرضت عليها.

أخذت الكتب بيدي وقدمتها لها بكل حب، وتلقتها ببهجة وفرح، تعلمت شام سريعًا كيف تقرأ الحروف وتستمع إلى القصص، وأصبحت الكتب رفيقة دائمة في رحلتنا اليومية.

كانت تحتفظ بالكتب بعناية فائقة، وكلما رأتني تأخذ كتابًا جديدًا من الجيران، كانت الكتب تغمرنا بسحرها وجمالها، وتنسينا هموم العالم الحقيقي، وكنت أنسى أحزان الحياة بين صفحاتها.

وهكذا بدأ صباح جديد من السعادة يطل على شرفة منزلنا، عندها جاءت الفرصة التي طالما انتظرتها، حين طلبت شام المشاركة في المسابقة، وكانت مستعدةً لها بكل حماس واجتهاد.

درست بجد واجتهاد لهذه المسابقة، فتفانت في قراءة أكثر من مائة كتاب، ورغم ذلك سجلت خمسين كتابًا فقط، لكن بفضل الله العظيم، برزت بتألقٍ واستحقت الشرف والتكريم،

فبه تسطع شمس السعادة في حياتنا، وبه نثني على كل نعمة وفضل، في الأولى والآخرة، فله الحمد والشكر دائماً وأبدًا.

وقف الشيخ متأملاً في أعماق الذات، وكأنما يستنطق أسرار الكون في لحظة الصمت ثم جاءت كلماته، تتدفق كنهر من الحكمة والجمال:

«أيها الناس، أليس الله قد أكرمنا بأمهاتنا؟ إنها أرض الحنان التي تزرع الأمل في أرواح أطفالها، وهي سر الحياة التي تنطلق من أعماق القلوب، الأم، هي لغة الحب التي لا تحتاج إلى ترجمة، وقصيدة الجمال التي لا تنضب، لا اقتباس يُنصفها، ولا كلمات تكفيها، تلك الروح الطاهرة التي تنير دروب الحياة بنور الحنان والعطاء، وترسم أحلامنا بألوان الأمل والسعادة، إنها الزهرة الندية في حقل الحياة، تفوح عطرًا يملأ الأرجاء بالسكينة والدفء، إنها شمس ساطعة تغمرنا دفءًا في أليم الليالي الشتوية، تغمرنا لطفها وحنانها، الأم مصدر العطور الفوّاحة، وعنوان البساتين الزاهية.»

«لايمكن لأديب أو كاتب أو شاعر مهما عَظُمَ أن يصف تلك النظرات المتبادلة بين الأم وطفلها الرضيع، فهي لحظات تمتزج فيها الحنان والرعاية بين أنفاسهما، تنبعث منها شعاع

مـن الأمـل والسـلام، لـك تحيـات عسـكرية يـا أم شـام ألـف ألـف سـلامة، أنـت بارقـة الأمـل.»

فاجتمـع عـدد كبـير مـن الصحفيـين والكتّـاب للمحادثـة، وأخـذوا يقبّلـون الشـام ويسـألونها عـن نجاحهـا...

رمز التفوق

كانت أروقة الفصل هادئة، حيث انشغل الطلاب بمهامهم الدراسية، والأستاذ منهمك في مراجعة الجذاذات، دخل عميد الدراسات مبتسمًا، يرافقه تلميذ جديد يختلف تمامًا عن البقية، أشعث الشعر، ضامر البطن، ثقيل الخطوات، وجهه مشققة الأيام، حفر فيه الزمن أخاديده، حامل محفظة خرقة، ومرتد ملابس رثّة بالية، وقبعته السوداء المتهالكة تشبه صحن طائر، ولكن اللافت للنظر هو حذاؤه، حيث بدت منه مخالب أصابعه الخمسة تتشابك بحصى الأرض، مع كل هذا وهو يسير بخطى ثابتة في اتجاه الأستاذ.

ارتفعت قهقهات الجميع من كل جانب، وتزايدت الخربشات والضوضاء في الفصل، وكأنما اجتاحه إعصار من السخرية، كان التلميذ الجديد نعيم، يتجرع السم قطرة قطرة، والحزن يعبث بوجهه حتى ماتت الدمعة في الأحداق، عمّ الصمت بعدما صرخ عميد الدراسات كالفيل الهائج، منتفخ الأوداج، ضارباً كفاً بكفٍ وهو يقول:

«ما قلة الأدب هذه؟ هذا نعيم زميلكم الجديد»

ابتسم المعلم ببسمة هادئة، وقد لان له فؤاده، وحنت عليه أضلاعه، وهو يقول:

«أهلاً بك في بيتك الثاني»

جلس نعيم على إحدى الكراسي، ووضع محفظته المهترئة في القمطر الذي لحق به، بينما كانت أنظار التلاميذ الساخرة ترهقه وتعييه، كأنها سهام موجعة تخترق قلبه المتعب، كانت تلك اللحظة بداية جديدة لنعيم، محملة بأثقال من الألم والأمل، وهو يحاول التأقلم مع واقعه الجديد، بين زملاء لم يعرفوا بعد قيمة الصداقة الحقيقية.

خرج عميد الدراسات، فعادت القهقهات والهتافات من جديد، لكنّ المعلم أوقفها بطريقته الخاصة، إذ سحب العصا من مكتبه وهزها قائلاً:

«لا شك أنكم تبحثون عنها، ولن أبخل بها على من اشتاق إليها»

وهنا صمت الكل، وعادوا إلى إتمام واجباتهم، وبعد برهة، كتب الأستاذ تميناً معقداً على السبورة، وعجز التلاميذ عن إدراك السبيل إلى حلّه، فغضب الأستاذ، وكان قلبه يتمشى في صدره سخطاً وندماً.

مباشرة عاين الأستاذ نعيماً وهو منحنٍ على ورقته، مستوعبٌ في الكتابة. تماطرت عيناه، وانهمرت الدموع غزيرة كالحبات على وجنتيه، أثار ذلك استغرابه وأدهش زملاءه، فالتفت نحوه، وأخذ القرطاس منه.

استحال كيفه من هم وحزن إلى غبطة وبهجة، وكانت دهشته عظيمة حينما قرأ الجواب الصحيح على ورقة نعيم، بدأ القلق يدب إلى قلوبهم، ويزعزع كيانهم، لكنهم لم يصدقوا، فكتب الأستاذ تمرينًا آخر أكثر تعقيدًا من الأول وطلب إزاحة أستار الغوامض منه على السبورة.

ما هي إلا ثوانٍ حتى كان التمرين في أبهى حلة، يتلألأ باسما مفحمًا عليها، نال دهشة الجميع وإعجابهم، وصمت الفصل في ذهول.

قال الأستاذ بصوت مفعم بالفخر:

«نعيم، أنت تلميذ نادر، لقد أثبت جدارتك وموهبتك.»

عرف الجميع أن خلف المظهر المتواضع يكمن عقل لامع وروح مكافحة.

ومنذ ذلك اليوم، تغيرت نظرة التلاميذ تجاه نعيم، أصبح مثالًا للصمود والتفوق، وبدأوا يرونه بعين الاحترام والإعجاب، بات الفصل مكانًا يتقبل فيه الجميع بعضهم

بعضًا، وأصبح نعيم رمزًا للأمل والتحدي، ملهماً زملاءه بقصته وإصراره على النجاح رغم كل الصعاب.

قام الأستاذ بعقد حفلة جميلة، حضر فيها عدد كبير من الأساتذة والطلبة، طلبوا من نعيم أن يقرأ نصًا أمام الجميع، وها هو التلميذ يسترسل في قراءته بإدراكٍ تام، دون ركاكة أو تلعثم، كان صوته البهي يهزّ الأحاسيس والمشاعر، فتسللت كلماته إلى القلوب، حتى أدمعت أعين الحاضرين.

كان المنظر ساحرًا رائعًا، أذهل العقول، وسبى الأفكار، وألهى النفوس، وقف الجميع احترامًا لنعيم، وتعالت التصفيقات في القاعة، حتى نال نصيبه من الاستحسان والثناء.

حينئذ، أدرك الجميع أن قيمة الإنسان ليست في ملابسه أو مظهره، بل تكمن في ذاته، في عقله وجوهره، رأوا في نعيم مثالًا حيًا على أن العزيمة والإرادة يمكن أن تتغلبا على كل الصعاب، وأن الجوهر الحقيقي للإنسان يظهر في قدرته على التحدي والتفوق.

شجار القدر

والله ما أصعب وأمرّ أن يقع الإنسان في قبضة الفقر المتعجرف، الذي يدهوره ويبعثر أحلامه، ويُحطم معنوياته كريشة في مهب الري، والأسوأ من ذلك، أن يحدث هذا في مدينة جميلة، فسيحة الرقعة، طيبة البقعة، ينساب هواؤها كنسيم رقيق، وطعامها هنيء ولذيذ، يعيش أهلها في سلام واطمئنان، ينعمون بحياة هادئة سعيدة، لكن من سوء حظ «عكراش»، أن حظه العاثر ساقه إلى ما حدث.

كان «عكراش» رجلاً هادئاً منفتحاً، يعكس وجهه المستطيل لطفاً وسكينة، ضئيل الجسم، خفيف الظل، متسارع الخطى، وعيناه شاردتان لمعتا بشيء من الحزن الدفين؛ فقد خبت فيهما الحياة، وغابت عنهما ألوان الأمل لم يبقَ في تلك العينين سوى دموع أحرقتها قسوة الزمن ومرارة الفقر النازف، دموع تحكي قصة صراع مستمر مع حياة لم ترحمه.

فكان فقيراً إلى حد لا يملك معه قوت يومه ولا وجبة حينه، اعتاد على مد يده للناس، يمر بهم يومياً طالباً العون والمساعدة، لكنه لم يكن يواجه سوى الطرد والقهر، نظرات تملؤها الازدراء وكلمات قاسية تزيد من جراحه، كل مساء، يعود إلى منزله حزيناً، صفر اليدين، لا يدري ماذا يفعل في الأيام المقبلة.

يمضي الوقت بثقل على نفسه، يجرّ معه آلامه وآماله المتلاشية، يقضي ليلته بين الأنين والسهاد، حتى يغلبه النوم أخيراً.

وفي كل صباح ينهض بنشاط كامل وتصميم لا حدود له، مستعداً لمواجهة يوم جديد، لكن المساء يأتي مجدداً محملاً بخيبة الأمس.

ورغم ذلك، يترقب كل ليلة أملاً جديداً، ينتظر صباحاً يطل عليه بأجمل الأحلام والآمال، صباحاً يعده بحياة رغيدة، حياة تداعب جدائل الشمس، تجلب معها الدفء والنور، وتغمره بالأمل في غد أفضل.

وفي صباح مشرق، كان الجو متلفعا بألوان زاهية، في إحدى سكك المدينة كعادته، وقد أنهكه الجوع والملل، وتلبد العرق على حرف طاقيته، بينما كان يسير بخطوات مثقلة، تلقى رجلاً

مـن أهـل الثـروة، فاقـترب منـه وقـال لـه -طامحـا في الطالـع لعلـه يتبـدل وفي الحـظ لعلـه يتغـير-:

«عفـوا، يـا غـالي، أرجـو مـن معاليـك قـرض بعـض المـال، وأظنـك سـوف لا تحرمنـي مـن جـودك وسـخائك»

نظـر إليـه الغنـي بنظـرة مشـوبة بالاحتقـار، ورغـم ابتسـامته الهشـة -صـار أصلـب مـن صخـر-:

«صـدّق الله بي ظنونـك، ولكـن لـن أعطيـك أي نقـد أو طعـام، فأنـت فقـير، صعلـوك أحمـق، لا تعـرف معنـى المسـؤولية، وكيـف لـك أن تـؤدي مـا عليـك في المسـتقبل؟»

كانـت كلـمات الغنـي كالسـيف، تمـزق آمالـه وتدمـي قلبـه، تتركـه في بحـر مـن اليـأس والحـيرة.

فرد عليه:

«بالطبـع، أنـا فقـير ومعـتر، ولكـن بعـون الله ومنّـه سـوف أدافـع عنهـا حتـى المـوت، وأنـت رغـم أنـك تملـك الكثـير مـن المـال وتعيـش في رفاهيـة، لا تـزال مجـرد غنـي جشـع، تملـك مـن المـال مـا يكفـي لإطعـام جميـع مسـاكين بلدتنـا، وتفضـل أن تغلـق قلبـك وتصـم آذانـك عـن نداءاتهـم.»

هـذه الكلـمات كانـت تحمـل في طياتها مشـاعر مختلطة مـن الغضب والأمـل، ثـم اسـتدار ليواصـل مسـيرته في تلـك السـكة، مؤمنـاً أن الأيـام قـد تحمـل لـه يومـاً مـا فرصـة لتغيـير مسـار حياتـه، وأن كرامتـه سـتظل درعـه الـذي يحتمي بـه في وجـه كل صعوبـات الحياة.

غضـب الغنـي مـن كلامـه، وزفـر زفـرة كادت تخـترق حجـاب قلبـه، ولكنـه لم يكـترث بهـا، ومـضى في طريقـه يسـب ويلعـن.

عـاد إلى منزلـه خائبـاً خـاسراً، حامـلاً أثقـال الإحبـاط وخيبـة الأمـل، وفي اليـوم التـالي، قـرر أن يعـود للانتقـام مـن الغنـي الـذي أهـان كرامتـه، سـأل بعـض النـاس عـن منزلـه حتـى وصـل إليـه، ودق البـاب بقـوة تعكـس غضبـه وعزمـه.

فتحـت زوجـة الغنـي البـاب، فـرأت الفقـير يقـف، رغـم دهشـتها، اسـتقبلته برحابـة صـدر ودعتـه للدخـول، رحبـت بـه وأحـضرت لـه بعـض الطعـام والشـاي، محاولـة أن تضفـي عـلى الجـو شـيئاً مـن الطيبـة والكـرم الـذي يفتقـده زوجهـا.

بعد أن تناول بعض الطعام، سألته الزوجة بعناية واهتمام:

«ما هي مشكلتك؟

هل لك من حاجة؟»

أجابها بصوت يملؤه الغضب والمرارة:

«بلى يا سيدتي، إن زوجك يسخر مني ويستهزئ بي، لقد جئت إلى هنا لألقنه درساً لن ينساه كابراً عن كابر، أنا من أولئك الذين يُحذر من فراستهم، ولن أترك هذا الأمر يمر دون أنال حقي أو ينال عفوي.»

للتو رن جرس المنزل، يرن ويستمر في الرنين، وعندما انفتح الباب، ظهر الزوج على العتبة، فاقداً بشاشة وجهه وسناء جبينه، رأته زوجته ومعه بعض رجال الشرطة، فهتفت بقلق:

«ماذا فعلت يا مشاكس حتى قبض عليك رجال الشرطة؟»

رد الغني متوتراً:

«والله لم أفعل شيئاً، ولا أعرف خطأ خطوته، ولا أستحق ما فعلوه بي.»

قال رجال الشرطة بلهجة حازمة:

«لقد اكتشفنا أن زوجك يقوم بسرقة البنوك، ومن هذه الجرائم الجسورة استطاع تكوين ثروته وعلو شأنه وشهرته.»

اشتد فزع الزوجة، وتعالى صراخها، وانهمرت الدموع من مقلتيها غزيرة كالشلالات، وقفت مذهولة، غير مصدقة لما تسمع، بينما كانت العبرات تسيل على وجنتيها بلا توقف.

وفي تلك اللحظة، وقف «عكراش» في انتصار وقال بلهجة تحمل مرارة السنين:

«لقد كنت تستهزئ بي أيها الغني المتبختر، أين تبخترك اليوم؟

إلى متى تستقر على حال وأنت فخور بها، تحسد الناس وتبغضهم؟

يبدو أن فقري أكثر شرفاً من غناك، فقد عشت نزيهاً رغم فاقتي، وأنت تعيش في وهمك الكاذب، تغرق في وحل جرائمك.»

كانت كلماته تبرز الحقيقة التي طالما حاول إخفاءها خلف قناع البهرجة والترف، وها هي الآن تتجلى أمام الجميع، واضحة كالشمس في رابعة النهار، لتثبت أن العزة والكرامة ليست بما يملك المرء من مال، بل بما يحمله من صدق وشرف.

من قارئ إلى كاتب

«أحمد» من أحبّ الأصْدقاء إلينا، يدْنو ختَام الثلاثين، ذو رأس مُستطيل، لكن صغير مُنحدر إلى ذقن مُدبب، لم نره منذ أن صَاحبناه ، إلا وهو متأبط مجموعة من أزاهير الكتب الصفراء في الأدب والبلاغة ، تاهٍ بصفرتها ، ولا يملك دونَ ما لديه من المجموعة كتَابا شَخصيا، ويعتقدها أكثر من مكتبة علمية مفَعمة بالكتب، وهذه هي مكتبته المحبوبة، كانت عيناه تتلألأن بلمعان خاص حين يتحدث عن الأدب والبلاغة، وكأنما يُغرق نفسه في عالم من الكلمات، يعانق حروفها ويعيش بين سطورها، لكن مما كان يدْهش الجميع، ما إن رأى كتابا لدى صديق إلا وأخذه وتحيّز في إحدى الحيز وأفرغه كلمح البصر في وعائه، وهو قارئ نهِم لا تروي له غُلة، يدْمن على القراءة إدمانا قاتلا.

ولم يكن يكفيه ما يملكه من كتب، بل كان يسعى دائماً لاقتناص كل كتاب يراه، لم نرَ له مثيلاً في شغفه بالقراءة، وكان ذلك ما يميزه ويجعله قريباً إلى قلوبنا، رغم تفرّده وغرابته.

لكـن أ تعـرف مـا كان يُنـشر لـه أي مقـال، رغـم أنـه كان يتخيـل بعـد إرسـال المقـال إلى لجنة المجلـة، سـأحتلّ مكانة مرموقـة في مضمار الأدب، سـأغرّد محلّقـا في سَـماء البلاغـة، سأمشّـط خيـوط الشـمس بأحلامـي وأفـكاري، لكـن الواقـع كان مغايـراً لأحلامـه، لكـن كان لا يجـد أثـرا لمقالـه في كل آت مـن الأعـداد، رغـم اسـتنظار أشـهر.

فجـاء إلي يومـاً، وقال بصوت يحمل شـيئاً من الأمـل والتحدي:

«أتعرف أنني طالعت أركان الأدب؟»

فابتسمت له مرحباً، وقلت:

«الله عليك، ربي يسعدك ويبارك فيك.»

لكن سرعان ما تغيرت ملامحه، وقال بغضب مكبوت:

«هـل تهملـون نـشر خواطـري وكتابـاتي لأننـي رجـل بسـيط غـير معروف؟

أم تريدون أن أستشفع إليكم بشفيع؟»

نظرت إليه بهدوء وقلت:

«على رسلك، تشرف.

أهذا مقالك؟»

قال بحماس:

«نعم.»

أخذت المقال وبدأت في تنقيحه وتهذيبه، وهو يراقبني بعينيه المتلهفتين، مشتعلاً بالرغبة في رؤية كلماته تتحول إلى قطعة أدبية جميلة، لكن بدأت تتكشف أمامي الأخطاء الشاسعة، كل ما وجده في القاموس من كلمة غريبة وضعها في مقاله، لا يعرف علامات الترقيم ولا التنسيق والتنضيد لم يكن يميز بين الحابل والنابل.

عندما انتهيت من تنقيح المقال، أعددت له الأخطاء التي ارتكبها، رأيت الارتباك في عينيه، وكاد أن يهرب من شدة الإحراج، لكني أمسكت بيده بلطف وقلت:

«أخي الغالي، الكتابة ليست مجرد حبر يلقى على القراطيس، وليست حروفاً تُكتب بلا هدف ولا سبب. بل هي روحك على هيئة كلمات مطوية بين ثنايا الورق. يجب أن تعكس الكتابة مشاعرك وأفكارك بوضوح وصدق، وتجذب القارئ بسلاستها وجمالها.

وأضفت قائلاً:

«يا حِبّي، الكتابة بحر واسع من العطاء، حضن يتّسع لكل مشاعرك، يحميك من قبح هذا العالم ويأخذك إلى عالم لك وحدك لتعِش بداخله كل لحظاتك، عالم يحتويك، يحتوي ذاتك وضعفك وأحلامك وأحبابك وذكرياتك ومسرّاتك.»

ثم نظرت إليه بعينين تحملان الحكمة والنصيحة، وقلت:

«لو تريد أن تكون كاتباً ناجحاً، لو تريد أن تلتمس السبل إلى شق الطرق، فعليك أن تتعلم وتتمرن باستمرار، أقترح أن تبدأ بقراءة مقالات نقدية لأدباء كبار، لا غنى لك عنها، ستجد فيها ما لم تجده في جنبات الكتب، حيث يقدم الفطاحل فذلكة ما لمسوه في حياتهم، وكتابة يومياتك بانتظام، وأن تحاول إرسال كتاباتك لأدباء محترفين ليتسنى لك معرفة نقاط قوتك وضعفك، أقترح أن تبدأ بتعلم الأسس من جديد، اقرأ كتباً عن فن الكتابة، احضر ورش عمل، وشارك في نوادي الأدب، تعلم من كل ما تراه وتسمعه، ستفتح لك أبواباً جديدة، وستعلمك كيف تصقل موهبتك وتطورها، لتصبح الكاتب الذي تطمح إليه «

كنت أرى الأمل يلمع في عينيه مجدداً، وكأنه وجد بريق الأمل في هذه النصيحة، علمت حينها أن شغفه للكتابة سيقوده

إلى النجاح، وأنه سيخطو بثقة نحو تحقيق أحلامه، مستعيناً بما سيتعلمه من هذه التجارب الجديدة.

***

بعد عدة أشهر من المثابرة والتعلم المستمر، حيث كتب يومياً وأرسل مقالاته لكتاب محترفين، تحسنت مهاراته الأدبية بشكل ملحوظ، أصبحت رؤيته تزخر بالثقة والإلهام، والآن، أينما يجدني يقول لي:

«لولاك لما كنت هاشاً باشاً، وما وجد لي أحد مقالا في مجلة ما، يا لك من صديق رائع.»

هذه الكلمات تنبعث من قلبه بصدق، مظهرة التأثير الإيجابي الذي أحدثته في حياته، ويشعر بالامتنان والثناء، يعبر عن امتنانه العميق للدعم والإرشاد الذي قدمته له، وكيف أثر ذلك على تحوله إلى شخصية متميزة في عالم الكتابة والأدب.

أصبح أحمد بعد ذلك كاتباً ناجحاً، يشارك في ندوات وفعاليات أدبية، ويعلم الآخرين ما تعلمه من تجربته الشخصية، وبهذا التحول، أثبت أن الشغف والمثابرة يمكن أن يقودا إلى تحقيق الأحلام، مهما كانت الصعوبات التي تواجهها.

بداية خدّاع

كانت أسرة نعمان تنعم بحياة هانئة، تعيش في أمان وسلام في إحدى أجمل بقاع الأرض، أعني فلسطين، هذه الأرض الرائعة، القريبة من بلاد الشام، لطالما تغنى بها الناس منذ أن بعث الله فيها الأنبياء عليهم السلام بين الفينة والأخرى، واستوطنها الكثير منهم حتى باتت تُعرف بأرض الأنبياء -عليهم السلام- والأرض المقدسة، في الحقيقة، فلسطين هي منطقة ساحرة بألف معنى، تتفرد بجمالها ونقائها بين سائر المناطق الجبلية، تغطيها أشجار باسقة وحدائق بهيجة، وتصدح فيها العصافير الشادية بأعذب الألحان.

كان نعمان في ذلك الحين طالباً في الصف العاشر، واعتُبر من بين أرقى وأجود الطلاب في مدرسته، كان يمتاز بنبل أخلاقه وتفوقه الدراسي، مما جعله محبوباً بين زملائه ومعلميه على حد سواء.

في ليلة شتائية باردة، طرق الباب فقير يستغيث ويلتمس العون، وصوته يتردد بين نبرات الرجاء والخوف، ممزوجًا بشيء من الانتعاش والانكماش، عندما فتح أبو نعمان، المعروف بالشيخ، الباب، وجد أمامه رجلًا دمثا، معترّا، ترتعد فرائصه من شدة البرد القارس.

قال الرجل باكيًا:

«أنا يهودي، وجئت إليكم أبحث عن مأوى، لم يسمح لي أحد بالسكن لديهم، فلجأت إليكم لأسكن في منطقتكم بضعة أيام ثم أرحل...»

رحب به الشيخ ولان له قلبه، فقد كان الشيخ بمثابة الزعيم الروحي والقائد الحكيم في فلسطين، لم يتوانَ عن مد يد العون للغريب، إيمانًا منه بأن الكرم والإحسان لا يعرفان حدودًا ولا ديانات.

وهكذا، حلّ هذا اليهودي وعاش بإكرام وإجلال في كنف أسرة الشيخ، كانت الأسرة تستقبله بكل محبة، وتعامله وكأنه واحد منهم، مؤمنةً بأن لكل إنسان حقًا في الحياة الكريمة.

ورغم الرأفة والرحمة التي أحيط بها، بدأ أهل المنطقة يشعرون بالانزعاج من تصرفات الضيف، فقد كان يتصرف بحرية تامة، يفعل ما يشاء، ويستعمل الأشياء دون استئذان، كان يذهب ويجيء في أرجاء المنطقة، يتناول الطعام من هنا، ويستخدم

الأدوات من هناك، دون أن يستشير أحدًا أو يطلب الإذن.

شيئًا فشيئًا، بدأت همسات الشكوى تتصاعد بين أهالي المنطقة، أصبح وجوده مصدرًا للضيق بالنسبة لهم، فقد شعروا بأن هذا السلوك يتجاوز حدود الضيافة المتعارف عليها، لكنهم، لم يتجرأوا على مواجهة الشيخ بما يشعرون به، احترامًا لمكانته وحكمته.

أما الشيخ، بنقاء قلبه ورأفته، فلم يظهر انزعاجه من تصرفات الضيف، ظل يعامله بكرم وطيبة، ملتزمًا بمبادئه السامية التي تؤمن بأن الكرم وحسن الضيافة واجبان لا يتزعزعان أمام أي تصرف أو موقف، لم يقل له يومًا: «لماذا فعلت هذا؟»

أو «لماذا تفعل ذلك؟»

بل تحمل كل شيء بصدر رحب.

في أحد الأيام كان نعمان عائدًا من المدرسة، يحمل كتبه وأحلامه الصغيرة بين يديه، كانت خطواته السريعة تُحدث صدى على الطرقات، بينما كان ذهنه شاردًا يتخيل اللقاء الدافئ مع والدته التي تنتظره كل يوم على الدهليز، تستقبله بابتسامة مشرقة وتأخذ بيده، تقبله وترافقه إلى البيت.

ولكـن في ذلـك اليـوم، لم يجـد والدتـه في مكانهـا المعتـاد، شـعر بـشيء غريـب يعتريـه، تسـارعت نبضـات قلبـه وازدادت خطواتـه حـيرة وقلقًـا، اقـترب مـن البيـت، فوجـد والدتـه تبكـي أمـام البـاب، ملطخـة بالدمـاء، ووالـده في حالـة يُرثـى لهـا، كان المشـهد مروعًـا، كـما لـو أن كابوسًـا حقيقيًـا قـد حـلَّ عـلى منزلـه الهـادئ.

قبـل أن تصـل سـيارة الإسـعاف، أسـلم والـداه أرواحهـما إلى بارئهـا، تاركـين نعـمان وحيـدًا في مواجهـة مصـير مجهـول، كانـت الصدمـة كبـيرة، والدهشـة أعظـم عندمـا عـرف نعـمان أن الضيـف اليهـودي هـو مـن قـام بطـرد أهلـه ورشـق عليهـم الرصاصـات، لم يكـن الأمـر مجـرد اعتـداء عابـر، بـل كان هجومًـا غاشـمًا هدفـه السـيطرة والاسـتيلاء.

كانـت كلـمات الضيـف الغاصـب تـرن في أذني نعـمان كجـرس إنـذار لا ينقطـع:

«أنـا صاحـب هـذه المنطقـة وهـذه الأرض أرضي، لا لكـم فيهـا شيء...»

كانـت تلـك الكلـمات تحمـل في طياتهـا تحديًـا سـافرًا وتهديـدًا صارخًـا، أعلـن جهـارًا أنـه لـن يتراجـع عـن أفعالـه، وأنـه مسـتعد لاسـتخدام العنـف ضـد كل مـن يعـترض طريقـه.

في خضم هذا الفاجعة، وجد نعمان نفسه محاصرًا بالحزن والغضب، كيف يمكن أن يكون الشخص الذي استُقبل بكرم وضيافة قد انقلب إلى غاصب متوحش؟ تذكّر نعمان كيف كان والداه يعاملان الضيف بطيب القلب والكرم، غير عابئين بمشاكل الدنيا وهمومها، كانت تلك المعاملة الإنسانية هي التي جعلت من الصدمة أشد وأقسى.

في تلك اللحظات العصيبة، لم يكن أمام نعمان سوى أن يتمسك بذكريات والديه وبتعاليمهما التي طالما غرساها فيه، تعلم منهما أن الكرامة والشجاعة لا يمكن التفريط بهما حتى في أحلك الظروف، جمع شتات نفسه ووقف بشموخ أمام التحدي الجديد الذي فرض عليه، واصل الحياة، ليكون قويًا من أجل والديه ومن أجل القيم التي آمنوا بها.

بدأ أهل المنطقة في تنظيم صفوفهم لمواجهة الغاصب اليهودي، ورفضوا الخضوع لتهديداته، كانوا يدركون أن التضامن والوحدة هما السبيل الوحيد لمواجهة الظلم، كان نعمان في مقدمة هؤلاء، قلبه مليء بالغضب، لكن عقله كان يردد حكمة والده:

«العنف لا يولد إلا العنف، ولكن الدفاع عن الحق واجب لا مفر منه.»

بدأ أهل فلسطين يتذكرون المثل العربي الشهير: «سمّن كلبك يأكلك»، وهو مثل يُستخدم للدلالة على أن من يُكرم أحيانًا يتنكر للإحسان وينقلب على من أحسن إليه، تجسد هذا المثل في قصة اليهودي الغاصب الذي، بعد أن استقر وأكل من خير أهل المنطقة، خانهم وادعى بما ليس له.

كانت أفعاله بمثابة شرارة أشعلت فتيل النزاعات في تلك الأرض الطاهرة، فقد بدأ يستغل ضعف أهل المنطقة وعطفهم عليه لتحقيق مآربه الشخصية، مدعيًا أن الأرض ملك له ولأمثاله.

وبهذا، بدأت الحروب في ديار فلسطين، تلك الأرض التي لطالما عرفت بالسلام والجمال، أصبحت النزاعات مشتعلة بين أصحاب الأرض والمعتدين عليها. حاول أهل فلسطين بكل ما أوتوا من قوة أن يدافعوا عن أرضهم وكرامتهم، رغم قلة الإمكانيات وكثرة التحديات.

شَاعر موهُوب قَدير

بعـدَ ما اسـتلمتُ اليـوم دواويـنَ فضيلـة الأخ سَـعيد الباكسـتَاني، شـعرت بسـعادة غامـرة، جلسـت في مـكان هـادئ وبـدأت أقلّـب أوراق الدواويـن، مسـتمتعًا بـكل كلمـة وكل شـعر، كنـت أتنقـل بـين الصفحـات بحـماس، فَتـارة أطـربُ مغمْغـما بأبيـات، وحينـا تفـترّ شـفَتاي عـن ابتِسـامة عريضـة تعـبر عـن إعجـابي.

إذ رجـل أصْلـع، مطربـش، صاحـبُ نظـارة سـميْكة، مكِـبّ معـي عـلى الديـوان، وآنـما أمْعـن النظـرَ في شـعرٍ ممْتـع، ففجـأة قَهقـه مـلء الفـم، وقـال آخـذا ببَطنـه:

«من هو سعيد الباكستاني؟

أ هو قاطِن في إحدى مدائن العرب؟

أ هو شَاعر عَربي اشتهر بالباكستاني؟

أنّى لك هذه المجموعات القيمة؟»

وما كان هذا المُنْشَده السائل رجلا غَير خبير، بل له يدٌ طولى في منوّعات اللغة العربية، وله القدح المُعلى في مجالات النقْد الأدبي وهو شخصِيا قامة من القامَات.

قلت له مستفهما:

«ماذا تعني فضيلةَ الأستاذ؟

أليستْ لك معرفة بسماحة الشاعر القدير؟»

كانت نظراتي تحمل دهشة ممزوجة بشيء من التحدي، فقد كنت متيقنًا من جودة الشعر الذي بين يدي، وكنت أريد أن أستمع لرأيه الصريح.

حملقني بنظرة ثابتة، وكأنما كان يزن كلماته بعناية قبل أن ينطق، ثم بتدريج بطيء بدأت ملامحه تتغير، وراح ينتفخ، وقال بصوت ملؤه الحماسة والدهشة:

«لا والله، رشحات مُنسابة سلسَة في قمة الروعة، ومَضات مُشرقة تأسر القلب في أفكارها وصورها»

توقف برهة، وكأنه يستجمع كل العبارات المناسبة ليعبر عن انبهاره، ثم تابع قائلاً:

«أسلوب خلّاب، وذوق رفيع، إنه حقًا شاعر يمتلك موهبة

استثنائية، صارحني، أهو حِجازي؟ عرّفني عليه، كم أكون سعيدًا بالتعرّف على هذا السعيد.»

أصدقُكم القول بأني أَخذت في السرد دون الاسْتطراد، وهو صمُوت، يسمعني بآذان واعية:

فضيلة الأخ سعيد الباكستاني، عَالم فَاضل، ورجلٌ سَاذج من « الصوابي» بباكستان، شَاعر موهوب قَدير، عِملاق فَذ أريب، صاحِب إحْساس مُرهف، بل لديه إحسَاس دَافئ عمِيق متسَلل إلى القلْب والروح»

واصلت الحديث، وأنا أرى الإعجاب يتزايد في عينيه:

«سعيد الباكستاني هو صوت فريد في الشعر العربي الحديث، يمزج بين البساطة والعمق، وبين الرومانسية والواقعية، يتفنّن في تقديم الحب والود، ويتفاعل معه بصور شتى، لأجل مكنته اللغوية والشعرية، يمكنه أن يجعل من كلماته الرائعة قناديل مضيئة، وأن ينسّق بأحرفه الأنيقة باقات ملونة»

«قد اشتهر -منذ مَدى أعوام- بمسْتطاعه على التّعبير عن الأحَاسيس الفيّاضة والمَشاعر الجميلة من خلالِ قَصائده التي تعكِس روحَه الحَالمة وحسّه العاطفي، وبوصفه الحبّ والحنين والطبيْعة بطريقة فريدةٍ.»

بعد ما أنهيتُ كلامي وقال بإعجاب واضح:

«لله درّه شاعرا! إنه شاعر يسْتحق التعرّف على أعماله والاستمْتاع بِجمال قصائده»

فقلت له -مقدما إليه الديوان الثاني-:

«بلى يا مولاي، ولا مرية فيه أن قصائده تعِيش في قلوب القراء وتَترك أثرًا عميقًا في النفوس»

«دمتَ يا شاعرَنا المُبدع، سلم يراعك الرنّان، دامَ إبداعك ودامَ الفرح في قلبك، ودامَ جمال روْحك وأنتَ تنظم أبيات القصيد بكلّ حبّ وأمل.»

كانت هذه الكلمات تنساب من قلبي مباشرة، معبرة عن التقدير الكبير لشاعر لطالما ألهب مشاعرنا بكلماته العذبة وصوره البديعة.

أخذ الرجل الديوان الثاني بين يديه، وقلبه بشغف، وكان يكتشف كنزًا جديدًا، كانت عيناه تلمعان بوميض الفرح والاكتشاف.

قال بامتنان:

«إنني أتشوق لقراءة المزيد من إبداعات هذا الشاعر الفذ، أشعر وكأنني أمام شاعر كبير يستحق أن يحتفى به في كل مكان.»

جلست بجواره، وبدأنا معًا نستعرض بعض القصائد من الديوان الثاني، كانت الأبيات تنقلنا إلى عوالم مختلفة مليئة بالأحاسيس والمشاعر.

كذبة إبريل

في يوم من أيام الربيع الجميل، وعلى مقربة من ظراب حديقة مليئة بأشجار الزهور وأصوات الطيور، اجتمعنا نحن الأصدقاء في يوم الأحد، وغرة شهر إبريل كنا نتجاذب أطراف الحديث، ونطارح أضحوكات ذات بهارج ونرفع الأصوات بقهقهات تملأ الجو شغبا، إذ طلع علينا شيخ، كبير السن، عمره يتراوح بين خمسين وستين، وهو يحمل ملامح الحكمة والخبرة على وجهه الهادئ، وقد أظهرنا له الاحترام والتقدير بالنهوض لاستقباله، ولكنه أوقفنا بكل وقار قائلاً:

«مكانكم، مكانكم.»

ثم جلس بين أظهرنا دون أي قيل وقال، أخذ يصغي إلى ما يجري بيننا من الأكاذيب والخزعبلات الشنيعة بل بشعة، لا يمكن لمسلم أن ينطق بها، أو أن يستمع إليها، حتى كادت عيناه أن تمتلأ دموعا، فالرجل الذي كان يليني صاح قائلا:

«ما شانك يا شيخ؟

أ أنت في حيص وبيص؟»

والشيخ ما زال مصوب الرأس، ينتشف بمنديل ورقي مقلتيه، فبعد دقيقات قام فينا خطيبا آخذا بمحجنه، فقال:

«يا معشر الشباب، كم من مآثر شرعية فقدناها في حقبتنا الراهنة، وكم من سجايا دينية حرمناها في عصرنا الحاضر.»

«والرزية كل الرزية، كيف لنا أن نقتصّ على آثار الغرب قصصا، ألا وأنتم رهط إسلامي، تستقبلون كذبة إبريل بهذا النمط الباهر؟

وهل لكم عنها قديم تعارف؟

وهل لكم عنها سالف إدراك؟

وهل لكم في تاريخها وهويتها لاحق مطالعة؟»

فقلنا له:

«لسنا بخبيرين عنها يا مولانا، زدنا إيضاحا زادك الله صلاحا»

فبدأ في خطبة مجلجلة صارخا:

«اعلما أن كذبة إبريل تقليد غربي، يقوم على المزاح وإطلاق بعض الأكاذيب الدسمة وهي رسم من رسومات الغرب اللاغية، التي ابتدعت لتطرية الأذهان وتنشيط الأخدان، والأدهى من ذلك أنها جزء لا يتجزأ من عقائد النصارى، وقد أصيب بها مسلم اليوم لأجل جهله وفساد عقله»

وإضافة إلى ذلك قال:

«لو انغمسنا في وطابها، لعلمنا أنها محشوة بمعاصي غير قلائل يرأسها الكذب، ويقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيها: «إن الكذب فجور وإن الفجور يهدي إلى النار»، ويعقبه الغش والخدع بأسوأ حلة، قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: « من غشنا فليس منا»

هذه في عامة الأوضاع، فما حسبانكم في أيام مخصوصة، وبأسلوب قشيب، والذي يزيد الطين بلة، هي مشاركة النصارى في عقيدتهم الكاسدة التي من أكبر الكبائر، وليس ببعيد أنها يخرج المسلم من حظيرة الإسلام.

والرجل فينة لأخرى لا يعبأ بكلمة، وينطق بها لنزهة السامعين، ويحبر كلامه تحبيرا بأكاذيب لا في العير ولا في النفير، ولكنها تجر بها إلى السعير المسجر، كما في الحديث عن بهز بن حكيم عن

أبيه عن جده -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم-: ويل لمن يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له ويل له، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- يقول: قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا، يهوي بها في جهنم»

لم يكتف، بل استطرد قائلا:

«ومن المعلوم لدى كل من له مسكة من العقل، أن الدول الإسلامية ومنشآتها ومعاهدها وجامعاتها لما تشبثت بذيل رسومات الأوروبا، وحذت حذو أفكارهم، وتسيمت بسيمائهم، ما زال قصر الدين الشامخ وصرحه الباذخ، مصاب بانحطاط أخلاقي وتربوي، وملحق بانهيار ثقافي وحضاري، والمشاهدة خير برهان»

فآن ذلك شكرناه بامتنان عميق، وشكرنا الله على ما وهبنا من نعمه وما أنعم علينا من عطاياه، لقد كان اللقاء رائعًا، مليئًا بالمشاعر النبيلة التي تجلت في حضور هذا المنتدب الإسلامي، حتى أنني لم أستطع التعبير عن فرحتي وسعادتي بالكلمات، فكانت مشاعري أقوى من أي تعبير لفظي.

بعد هذه المعرفة العميقة والجادة، وجدت نفسي أعبر عنها بدموع الفرح التي انهمرت من عيني، وبنفثات من صدري، تعبيرًا عن الارتياح والامتنان، وها أنا أترك لك هذا اللقاء خالدًا، باقيًا في الذاكرة، محفورًا في القلب، كتجربة لا تُنسى وأثرا لا يُمحى.

في نهاية المطاف، أوجه خطابي إلى العلماء وطلبة العلم، داعيًا إياهم إلى عدم الوقوف موقف المتفرج أمام نهضة الأمة وحركتها المستمرة، إن لمواقفهم وانخراطهم تأثيرًا عظيمًا على الشعوب في المستقبل، فنحن نعيش في عصر العولمة والغزوات الفكرية والإعلامية، حيث يبث الأشرار السموم والفتن عبر الوسائل المختلفة.

ومن هنا يتعين عليهم المبادرة لاستعادة دورهم الحيوي في إصلاح المجتمع، ومواجهة الفساد بكل أشكاله، ودحض البدع، عليهم أن يتمسكوا بزمام القيادة بثبات ورشاقة، ليعيدوا للأمة مجدها وعزتها.

إنهم مدعوون لإشعال شعلة الأمل، وإعادة بناء القيم، وقيادة مسيرة الإصلاح والتقدم بعزيمة لا تلين، بهذا الطريق ستتمكن الأمة من تجاوز تحدياتها، والانتصار على أعدائها، والوصول إلى مستقبل مشرق يليق بتاريخها العريق وإرثها العظيم.

الفهرس

إهداء ٥
كلمة المؤلف..... ٧
اللص الورع ٩
سر اليد المفقودة..... ١٩
حفلة ميلاد الشبل..... ٤٩
بارقة الأمل ٥٣
رمز التفوق ٦٥
شجار القدر ٦٩
من قارئ إلى كاتب..... ٧٥
بداية خدّاع ٨١
شَاعر موهُوب قَدير..... ٨٧
كذبة إبريل..... ٩٣